هاوية العقل

هبة الله أحمد

الكتاب: هاوية العقل

المؤلف : هبة الله أحمد

رقم الإيداع: ٥٣٢٦ \ ٢٠٢٣

الترقيم الدولي: ١ - ٣٦ - ٦٩٣٣- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١١٤٩٧١٧٥٨٥/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر دون أخذ موافقة كتابية من دار الميدان فإن ذلك يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

أُثني على تلك المواقف التي لم توقفنا، بل جعلت منا أشخاصاً واعيين...

وعلى من لم تمنعه تلك المواقف عن الحياة، بل جعلته يحيا وكان هو الحياة لغيره...

فنحن لا نعش ما نتخيل بل نعش ما نريد وما نسعى لتحقيقه " كونوا على يقين بهذا "

(لعبة)

(١)

كانت الأمور تسير بشكلها الروتيني الممل، أستيقظ مبكراً أتجهز للذهاب للكلية ثم أستخدم السلم للنزول خمس طوابق وذلك لعدم تخلصي من فوبيا المصعد بعد، أسير في طريقي المعتاد خمس عشر دقيقة كاملة والآن أنا أمام الجامعة، لا أدري لم أخذت هذا القرار عديم الفائدة بدخولي الجامعة رغم معرفتي التامة بأن مجال الحقوق لن يضيف لحياتي الكثير أو هذا ما كان يقنعني به عقلي، لطالما كنت أتمنى الالتحاق بكلية الفنون ولأن هذا العالم لا يقدر الفن كما يجب فكان حصولي على وظيفة بمرتب يكفي عيشي شبه مستحيل، لو كنت في بلد أخرى ربما كان هذا ممكناً، بالإضافة أنني لم أكن لأقدر على تكاليفها فأنا العائل الوحيد لنفسي وذلك بعد أن فقدت والداي وأنا في عمر السابعة فكان عائلي الوحيد في ذلك الوقت هو معاش والدي الذي كان بالكاد يكفيني حتى عمر معين، وبالطبع كانت تراعني عمتي لفترة من الوقت حتى قررت بكامل إرادتي الرجوع إلى بيت والداي في القاهرة، المنزل الذي كان يعيش فيه مع أمي في بادئ حياتهما قبل أن ينتقلا للعيش بالقرب من عمتي في القرية لتقليل التكاليف قليلاً، وذلك بعد أن علما بقدوم ضيف بعد تسعة أشهر تحمله بين أحشائها، بعد عناء دام لخمس سنوات وسبعة أشهر كما قيل لي، كنت أنا هذا الضيف.

رجعت لبيتهما القديم أتذكر أنني زرته مع والداي عدة مرات عندما كانا يقررنا تقضية بعض الوقت بعيداً عن القرية، رجعت الآن وأنا في عمر السادسة عشر أي وأنا مقدمة على آخر سنوات المدرسة التي كانت ستحدد مصيري كما يقول الكثيرون، أستيقظ كل يوم لأجد هذا الجسم يرسوا وحيداً في هذا المنزل وذلك بعد أن بدأت زيارات عمتي في التلاشي يوماً بعد الآخر، بدأت في دوام جزئي، أعمل نادلة في إحدى المقاهي القريبة من المنزل وذلك لتوفير مصاريف المواصلات وكان هذا بعد العصر أي بعد انتهائي من المدرسة ولم أجد صعوبة كبيرة في الحصول على هذا العمل لعزوف الكثير عنه بسبب أوقات العمل التي كانت متوفرة حينها، وكُل هذا سعياً لقبض بعض القروش التي يسرت حالي قليلاً مع معاش والدي الشهري وذلك لأتمكن من خوض الحياة بمفردي.

حسناً حاول أن تصمت قليلاً أيها العقل الآن لنتمكن من اللحاق بالمحاضرة الأولى. ها أنا أدخل تلك الغرفة التي يتصنع فيها الجميع حبهم لمادة الدكتور فلان ظنا منهم أن ذلك سيزيد من أرقام تكتب لهم آخر كل سنة. أما أنا توجهت مباشرة إلى مكاني المعهود الكرسي في الزاوية اليمنى آخر الغرفة ليجاورني من اليمين بوابة أرى منها جمال آخر لهذا العالم الباهت. ما هي إلا خمس دقائق حتى أقبلت جهاد صديقة حياتي منذ الطفولة كانت تسكن في نفس الحي الذي تقطن فيه عمتي، تربينا مع بعضنا لتحتل هي مكان أختي التي لم توجد من الأساس وأكملنا مسيرتنا معاً ويشهد على ذلك دخولنا لنفس الجامعة ونفس الكلية حتى لا نفترق أو هذا ما فرضه علينا تحصيلنا الدراسي. أقبلت بملابسها ذات اللون الأزرق الموحد بين كل

ملابسها لم تفكر أن تغيره قط عدا أنها كانت تغير في درجاته حتى شككنا لفترة أنها ستذهب لتوشم جلدها كامل باللون الأزرق من شدة حبها له، حسناً هذا مبالغ فيه بعض الشيء فرغم غرابة ما كانت تفعله إلا أنني كنت أرى أنه لمن الجميل أن يُكن أحدهم حباً كبيرا كهذا للون، فليس بالضرورة أن نرهق قلوبنا فقط في حب فصيلتنا فهناك في هذا العالم ما يكفي ويستحق منا أن نعيره بعض الاهتمام وهذا ما لا يفهمه الكثيرون. تقدمت جهاد مني وهي تقول:

- كيف حالك أماتا..

قلت:

- بخير..

تابعت:

- ألم تأتي أسيل بعد، يبدو أنها ستتأخر اليوم..

أجبت:

- لا ولكن أعتقد أنها لن تتأخر فليس من عادتها أن تتأخر وبالأخص عن أي شيء يخص الدراسة، من المفترض أن تكون على وصول..

صمتنا قليلاً لتقول جهاد:

- ها هي قادمة..

دخلت أسيل قاعة المحاضرات، صديقتنا من الثانوية تم ضمها إلينا بعدما لم يتمكن أحد من تقبلَها بينهم بسبب تلك المشاغبات غير المبررة التي كانت تقوم بها حتى دون سبب مقنع لكننا كنا نرى

جانب آخر لها، حيث أن تصرفاتها تلك لم تكن إلا ستارة تغطي به ما هو أعظم لذا لا ننكر أن انضمامها كان أفضل ما حدث لنا منذ مدة طويلة، أقبلت كأن بستان يقبل علينا لا بشرية، فستانها المزركش بألوان لم نتخيل قط أن تجتمع في تصميم لقطعة ملابس واحدة ورائحة عطرها التي تُشم من آخر القارة كأنها غَسلت ملابسها بها لم ترشها فقط، وابتسامتها التي تشعرك أن هذه الدنيا حقاً لا تستحق كل ما نركض وراءه، تبتسم كأنها لا تحمل هم اليوم. أقبلت علينا فاتحة ذراعيها لتحتضنني أنا وجهاد معاً كما اعتدنا منها أن تفعل دائما.

****

أخذ كل طالب مكانه واستعدل الجميع في جلسته عندما دخل دكتور عصام، دكتور في مادة حقوق الإنسان، كعادته دوماً قبل شروعه في أصل المحاضرة بدأ يلقي علينا ذلك الكلام الروتيني عن أخلاقيات المحامي وما هي الأساليب التي يجب اتباعها لتجنب خرق قوانين القانون، بالرغم من معرفته أن أغلبية المستمعين له الآن يطمح للحصول على شهادة جامعية فقط لا أكثر لتجنب نظرة المجتمع الدونية لغير الحاصل عليها لكي يسمى خريج جامعي، وما تبقى سيتبعون النظام السائد في المجتمع لا تلك الكلمات الملتصقة في الأغلبية العظمى لكتب الأخلاق، بعد ربع ساعة تقريباً وأخيراً بدأ في ما كان يجب عليه أن يبدأ فيه من البداية، كان المكان يسوده صمت الجميع عدا صوت الدكتور عصام وشعورٌ بالملل يملأ المكان حتى قال:

- وبهذا أنهي محاضرتنا لليوم وألقاكم الأسبوع المقبل..

أخيراً قد انتهت ثلاث ساعات أخرى من حياتي دون معنى، نظرت لصديقتاي فهما مقصدي وهممنا بالخروج من القاعة، لم أكن أنوي إنهاء جميع محاضرات اليوم على كل حال،

- لما تكبلنا عناء الذهاب للجامعة ما دمنا سنحضر محاضرة واحدة، لما لا نكمل اليوم دوماً..

لنضحك أنا وجهاد على ما قالت أسيل، كعادتها تحب الدراسة مع ذلك تتضامن دوماً وتقرر المغادرة معنا، أخيراً انتهى يوما آخر بقرار منا لنتجه ثلاثتنا بالخروج من هذا العالم وننتقل لعالمنا الصغير الذي لم يفشل أبداً في احتوائنا. اتجهنا لمنزلي وبما أنها نهاية الأسبوع فستبيت جهاد وأسيل معي الليلة وهذا موضوع أصبح غير قابلٍ للنقاش حتى لو حاولت رفضه. تبضعنا في طريقنا بعض من الأطعمة والمشروبات استعداد لليلة طويلة، عندما رسونا أخيراً في المنزل اكتفت كل واحدة بقسط راحة لم يتعد النصف ساعة ثم بدأنا بتجهيز الألعاب وفيلم لم نُكمله قط نتيجة نفاذ بطاريتنا في منتصفها فأطلقنا عليه اسم (الما لا نهاية). بدأنا بألعاب الورق حتى سألتني جهاد:

- لم أرك قط تدخلين هذه الغرفة..

مشيرة لغرفة في أخر رواق المنزل، أجبتها:

- ماذا سأفعل بها؟! ..كان والداي يستعملانها كمخزن..

- ألم تفكري قط باكتشاف ما فيها..

- لا، لابد أنها لا تخلو من شباك العنكبوت المتناثرة في كل مكان وحشرات قد يعجز العلماء عن تسميتها..

قالت أسيل بحماس الأطفال التي لم تتخلى عنه أبداً:

- لم لا نغير من روتين نهاية الأسبوع الممل هذا وندخل لاكتشاف الغرفة أجزم أنها تحتوي على تحف فنية أو كائنات غريبة أو ربما كنز..

أنهت كلامها بابتسامة كالعادة، فكرت كثيرة لمدة لا تتعدى الدقيقة وشرعتُ بالوقوف لأتجه للغرفة تبعتني جهاد وأسيل لفهمهم أنني وافقت على الفكرة. وضعت يدي على مقبض الباب فتح مباشرة كأن مُفصلاته كانت تستخدم صباحاً كان هذا غريب، أشعلت كُل واحدة منا كشاف هاتفها لخلو الغرفة من الإضاءة، وجدنا صناديق مبعثرة في كل مكان كانت بعضها يحتوي كتب لعلوم البيئة والجيولوجيا وهذا لأن أبي كان عالم في تلك العلوم على حد علمي، وأخرى تحتوي على ديكورات صغيرة من تلك التي توضع في كل زوايا المنزل وقطع من الأثاث الفاقدة لبعض أجزاءها والكثير من الأمتعة والأدوات المنزلية، وأخرى جمع فيه صورٍ كثيرة لعائلتي التي فقدت ملامح الكثير منهم لقلة اختلاطي بهم، كانت هذه من عادت أمي أن لا تتخلص من أي غرض لقناعتها أن حياتنا تكمن في تلك التفاصيل الصغيرة، وصناديق جِمع فيها ملابس لأمي وأبي يبدو أن هناك حسنة فعلتها عائلتي بعدم تخلصهم من تلك الملابس لكن ليس من التقدير أن توضع وسط كل تلك الأوساخ والأتربة، بقينا هكذا لمدة لا تتجاوز الربع ساعة على حد علمي نبحث وسط الصناديق عن ما يثير شغفنا، حتى فصلت تركيزنا صرخت أسيل لوهلة ظننا أن حشره رست على شعرها التي لو امتلكت أبناً في المستقبل لم اهتمت به كل هذا الاهتمام ولكن لم يكن كذلك:

- أنظروا ماذا وجدت، أنظري يا أماتا لابد أنها لكي، اسمك مكتوبّ عليها..

تناولته منها لأدققه كان أشبه بجهاز إلكتروني كأنه لعبة من الأساطير التي كنا نسمع عنها لكن لماذا كُتب عليه اسمي ولماذا لم يظهر عليه أي علامات للقدم أو خربشة، كل ما كان عليه بعض التراب وقد نفضته مسبقاً بالفعل للتمكن من تفحص هويته.

- من أين لكِ بها..

سألتها ومازالت عيناي تتفحص تلك القطة في يدي لترد علي:

- في هذا الصندوق، يبدو أن جميعها أشياء تخصك..

أشارت لصندوق في إحدى زوايا الغرفة، نظرت فيه لأجد ألعاب ودمى أذكر أنها كانت هدايا من والدي وبعض ملابس الطفولة رجعت بنظري للعبة التي لم أعرها انتباه وبدأت أمازحهن لامتلاكي وحفر اسمي على لعبة من الأساطير هكذا لقبناها. قطعت فقرة الضحك جهاد وهي تقول:

- حاولي الضغط على زر من الموجودين في جوانبها ربما تدلنا عن ماهيتها..

جاريتِها رغم تأكدي التام أن هذا الشيء لو كان يعمل سابقاً فاليوم شيءَ مُستحيل. ضغطت على جميع الأزرار بصورة عشوائية لكن دون جدوى كما توقعت لم يرشدنا هذا لشيء. وضعته جانباً لنهُم باستكمال رحلتنا في اكتشاف الغرفة المهجورة لكن حدث ما لم نتوقعه.

(٢)

شع ضوء غريب في المكان كاد يخترق الجدران من قوته نعم كنت أشعر بقوة غريبة تنبعث من هذا الضوء، حاولنا الاقتراب من بعضنا ولكن لم نتمكن كأن قوة كانت تحول بيننا فجأة تحولت علامات الدهشة على وجوهنا إلى علامات جفول عندما بدأ جسد جهاد في التلاشي بداية من قدمها حتى رأسها اختفى أثرها كأنها شيء لا وجود له، حاولت الهرب، أردت أن أخرج من تلك الغرفة حينها ولكن كان كل مكان في جسدي يأبى الحركة أطرافي متصلبة لا أشعر بها كأنها قررت التخلي عني ومغادرتي حتى رأيت حدوث نفس الشيء مع أسيل ثم تبعتهما كذلك.

****

فتحنا أعيننا السماء من فوقنا صافية تنهدنا في نفس اللحظة تقريباً لإدراكنا أن كل هذا ربما كان حُلماً نتج من عدم انتهائنا من متابعة ذلك الفيلم (المالانهاية) هكذا سميناه لعدم معرفتنا لنهايته رغم أنها المرة الرابعة التي نُشاهده فيها. اعتدلنا في جلستنا لتُقابلنا رقعة خضراء لا تخلوا من أشجار التنوب العالية، نعم كنت أعلم ماهيته هذه الشجرة لاطلاعي على عالم النباتات مسبقاً والذي أعشقه بصورة خاصة، قرأت ذات مرة عن زهرة جذبني اسمها وذلك لغرابته تسمى بزهرة الجثة كنت أحاول حينها التعرف أكثر على بعض الزهور الغريبة لكن أعتقد أن هذه الزهرة قد نالت على إعجابي فما وصفت بالجثة إلا لأن ذلك قد يكون أفضل وأدق كلمة تناسب طبيعتها،

سأترك عالم النباتات الآن لأتمكن من التركيز أكثر في تفاصيل هذا الإبداع الكامن أمامي حيث أن المكان أشبه بأفلام الكرتون، بعد أن أدركنا أننا لا نحلم بدأنا في اكتشاف المكان، سرنا قُرابة العشر دقائق لكننا لم نشعر إلا وكأنها ساعات فلم يكن هناك أحدٌ غيرنا في المكان، قالت جهاد:

- أعتقد أن هذا المكان يشبه مكان رأيته من قبل لكن لا أتمكن من التذكر أين كان..

لتجيب أسيل:

- لا أعتقد هذا، ربما تتخيلين..

أردفت:

- حديقة الزهور في قريتنا السابق..

وأكملت مخاطبة أسيل:

- بالطبع لن تذكري لأنكي لم تكوني معنا حينها..

ردت جهاد بحماس:

- أجل إنها تلك الحديقة كيف لم أتذكر هذا، لكن حديقة

الزهور كانت تفوق هذه في الجمال بمراحل..

ضحكت من كلامها فهذا المكان يبدو كالخيال، أكملنا السير حتى كنا سنفقد الأمل في وجود غيرنا على هذه الأرض حتى وجدنا أطفال يلعبون على ألعاب كأرجوحة وتلك المتاهات الصغيرة المصنوعة من الخشب والبلاستيك المقوى وألعاب مختلفة أخرى ذات ألوانٍ مبهجة،

فُرِشت على رقعة كبيرة من تلك الأرض نساءَ يراقبن أطفالهن وهن يجلسن على كراسي موزعة بشكلٍ دائري يحيط بتلك الرقعة. لم يكن الأمر غريباً سوى أننا لا نرى أي شيء غير اللون الأخضر وبعض الألعاب أين المباني أين المساجد والكنائس، من المفترض أن نرى مستشفى، مدرسة، أبراج سكنية، أي شيء يدل على وجود بشرية على هذه الأرض باستبعاد العدة المعدودة التي نراها أمامنا. لم نفكر أكثر في اكتشاف المكان فقد قررنا الجلوس على إحدى تلك الكراسي المحيطة برقعة الألعاب لأخذ بعض الراحة حتى خرجت أسيل عن هذا الصمت:

- هل تفهم إحداكم ما هذا؟ ما الذي يحدث لنا؟ هل سافرنا دون أخذ موافقة أنفسنا؟!! ولهذا لا ندرك ما يحدث..

لتحاول كل منا استرجاع بعض من ذاكرتها التي كأنها قد مَحت بعض الساعات من حياتنا، قلت:

- تذكرت شيء كنا قد دخلنا الغرفة المغلقة ووجدنا

جهاز لوحي مكتوب عليه اسمي حاولنا تشغيله وهذا كل ما أذكره..

صرخت أسيل:

- الضوء... جهاد قد تلاشت... أنا لا أفهم شيء..

انتفضت جهاد من مكانها مُتجهة لإحدى النساء الجالسات لتحاول التمكن من فهم والاطلاع أكثر عن ماهية هذا المكان الذي نزلنا فيه دون معرفتنا:

- لو سمحت نحن لسنا من هنا وأظن أننا ضعنا في شوارع هذه

القرية ألا يمكنك أن تدُلينا على طريق يوصلنا لأقرب قسم شرطة، أو محطة نستقل منها حافلة لنعود لديارنا..

لم يكن سؤال جهاد غريباً أو صعب لهذه الدرجة لأنها لم تتلقى أي جواب من الطرف الآخر حاولت طرح السؤال لواحدةً تلو الأخرى حتى عادت لنا كما ذهبت. ما هذه المتاهة عجز عقلي عن التفكير مضى على تواجدنا في هذه الأرض نصف ساعة على حد علمي، فجأة ودون سابق إنذار تحولت السماء للون الأسود وبدأت الصواعق بالظهور لم تكن الأجواء تُنبأ بها، دوت في الأرجاء أصواتٌ مخيفة كانت تصدر من السماء بدت لي أنها تعلو على صوت الصواعق، غيوم رمادية كثيفة ظهرت من العدم لتغطي السماء بالكامل، حدث كل هذا في لحظات شعرت أنها ساعات تأخذ خطاها لتصبح يوم.

هدأ كل شيء في وهلة كأن شيئاً لم يحدث فيما عدا عدم اختفاء تلك السماء السوداء، ظهر بعد لحظات الهدوء تلك أعاصير ترابية مُخلفةً من بعدها شبح شخصٍ يرتدي عباءة تُلحف بدنه بالكامل، اقترب أكثر لكن لحظة..... إنها امرأة ولكن أقل ما يقال عنها أنها بشعة الملامح ترتدي عباءة سوداء كأنه لا يكفيها كل هذا السواد الغالب على المكان وعلى لون شعرها التي قررت بعض الشُعيرات منه التمرد عن هذا اللون لتصبح بيضاء، عيناها حمراوتان كأنها ستحرق المكان من حولها بتلك الكرات القابعة في جمجمتها، أعتقد أنها تشبه عيون الشيطان رغم عدم رؤيتي لها لكن كانت هذا الصورة المخلفة لنا منذ عصور قديمة عن ملامح الشيطان المخيفة واللون الأحمر الغالب على كامل جسده، حاجبين عريضين مبعثرين، فطساء الأنف فقد كان أنفها شبه مُختفي لدرجة ظننت أنها لم تمتلكه من الوهلة الأولى، أسنانها

كالذئب، فم يشبه كل شيء إلا الفم خرج منه كلمة يتيمة:

- اتبعوني..

همست أسيل باستنكار كي لا تسمعها:

- ما هذا الصوت! أعتقد أننا لن نرى أي غربانٍ هنا بسبب صوتها المُنفِر هذا..

حاولنا تجاهل هذا الجانب قليلاً وبدأنا بالتلفت حولنا لم نجد أحد سوانا على الأرض كأنه لم يوجد أحدٌ قبلنا كأنهم كانوا سراب، أين ذهبوا؟، ظننا أن الكلام لم يوجه لنا في البداية حتى تأكدنا أننا المقصودين بهذا الكلام وأنه وجه لنا على وجه التحديد.

****

سرنا خلفها دون إرادة منا كأن قوة خفية تسحبنا نحوها، رأينا في طريقنا بيوت لم تكن موجودة من الأساس كأنها خلقت من العدم كانت تشبه البيوت..... لا أعلم ماذا تسمى لكن تلك البيوت كنت أرها في الأفلام القديمة التي يدخل في تكوينها الطين على الأغلب ولا تتعدى الطابقين، أصبحت شاحبة باهته أكثر مما كانت عليه بسبب تقادم الزمن عليها كأنها مهجورة لم يسكنها البشر منذ مئة عام أو أكثر، طاولات مبعثرة في كل مكان دالة على أطلال أسواق الشارع التي كانت توضع عليها أنواع من الفاكهة والخضراوات وأنواع أخرى مختلفة من الموارد الغذائية وتصنف بشكل منفصل ومرتب، كما كنت أرى في القصص القديمة والأفلام التاريخية كانت تشبهها وهذا دليل آخر على أن هذه الأرض سكنها بشر لكن أين هم لا أدري، هل من الممكن أن تكون النهاية ونحن نشهد هنا آخر أيام البشرية على

وجه الأرض، حتى ولو لم تكن كذلك لكني شعرت بأنها قريبة لا تبعد الكثير عنا.

رغم شحوب المكان إلا أنه يحوي نهراً يجري في المنتصف يتشعب منه ممرات تلتقي أمام كل منزل وذلك في الأغلب لدعم البيوت بالماء، كان المسار الذي يمشي فيه الماء لا يتسبب في الغرق فبالكاد لا يغطي إلا الجزء أسفل الركبة وقد كان باستطاعتي رؤية الأرض من تحته، كانت المياه تَجري على صخور ذات لونين الأبيض والأسود الأغرب أنها مرتبة كرقعة الشطرنج لم تكن مبعثرة لكن لماذا هذا النهر لم يجف أو لماذا لا يبدوا عليه أي علامات تهالك كما حدث مع باقي المدينة، كان المكان يبدو كلوحةٍ فنيةٍ من التراث القديم كساها التراب فيما عدا ذلك النهر.

انشغلنا قليلاً بالأرجاء حولنا حتى خطرت على بالي تلك المرأة العجوز التي من المفترض أننا نتبعها بإرادتنا رغم شعوري بعكس هذا، نظرتُ أمامي فوجدتها تمشي بسرعة لا تتناسب أبداً مع عمرها أو ربما كانت تركض..... تطير، لم أستطع تمييز ذلك فأنا لا أرى تحرك قدمها كأنها مثبتة على لوحٍ طائر. سمعت جهاد تهتف بنا بعد أن تقدمت عنا بقليل:

- لا تهيما في المكان هكذا وتنسيا ما كنا نفعله، أسرعا قليلاً وإلا سنفوت تلك العجوز..

استمعنا لجهاد وحاولنا مجاراة سرعتها لكن لم نستطع، حتى جهاد عداءة فصول الثانوية لم تستطع مجاراتها.

(flash back)

إنه الشهر الثالث لجهاد في التدرب كانت تركض كل يومٍ مسافة لا تقل عن الأربع مئة مترٍ يومياً لتتمكن كعادتها من الفوز بالمركز الأول على مستوى فصول الثانوية لمدارس المنطقة. أذكر في إحدى أيام الشهر الثالث كيف تقلبت ملامح وجهها وإحباطها الذي نتج عنه اتخاذها لقرار عدم دخولها المسابقة لما تداول على ألسنة الجميع تعاطيها لمنشطات تمكنها من مجارات الحصان في السرعة. كم كان كلام مبالغاً فيه، حاولت جاهدةً مع أسيل تشجيعها على الاستمرار وأكدنا تصديقنا التام لها باستحالة حدوث ما يقولون ووثوقنا بعدم مصداقية هذا الكلام حتى قررت المدرسة عمل فحص شامل لها لمنع كل هذا الكلام ومنع مسائلتهم القانونية فتبين حقاً أنها لم تتعاطِ شيئاً أقوى من مسكنات الصداع المعتادة فمن منا لم يتناول مسكن في حياته، بعد أسبوع من تلك الأحداث أكملت جهاد تدريباتها والتحقت بالمسابقة وكما اعتدنا من جهاد فكالعادة قد حصلت على المركز الأول.

(back)

أما أسيل كانت أقل من جهاد في سرعة وأنا ما كنت أستطيع مجابهتهن كنت أبطئهن وأضعفُهن بنيان، تحايلنا على أنفسنا لنُكمل حتى قررت العجوز أخيراً التوقف، لنتمكن نحن من التوقف قليلاً جثونا، على رُكبنا نلتقط أنفاسنا.

****

كان المنظرَ غريب..... مخيف..... خليطٌ بين هذا

وذاك. وصلنا لساحة تكتظ بالناس كأنهم زرعوا عليها كان لباسهم، بالي أجسادُهم نحيلة، كنا ننظر لهم من أعلى تله يعلوها التراب والصخور كبقية المدينة حتى قطعت صمتنا وذهولنا العجوز بكلمات أخرى:

- واحدة فقط سترافقني أما البقية سيكون هذا مصيرهم..

وأشارت للأسفل......... للناس في الساحة.

(السلم والثعبان)

(٣)

تظهر أمامنا شاشة كأنها إسقاط ضوئي من جهاز إلكتروني الفارق الوحيد أنه لا يوجد جهاز يخرج منه الضوء وهذا ما لم أكن أتوقعه تكنولوجيا في مكان كهذا. نظرنا للشاشة التي ظهر عليها خمسة دوائر ما كانت تدل لي إلا على اللاشيء، كانت تبدو علامات الاستفهام على وجوهنا واضحة فنحن حقاً لم نفهم ما الذي كانت ترمي له تلك الدوائر. كانت مرتبة بهذا الترتيب كان الأزرق أولهم، كيف عرفت!! قد كانت الدوائر مرقمة من الواحد للخمسة، والثاني كان أزرق ممزوج بالأخضر بالطبع لم يكتب هذا على الدائرة كالأرقام كنت استنتج الألوان فقط، والثالث برتقالي صريح نعم هذا غريب أن أرى شيئاً صريح وسط كل هذه الفوضى والغموض والتعقيد، والرابع أخضر، والأخير جمع بين لوني الأسود والأبيض كأنه رمز "ين يانغ" الصيني الذي يعني أن الخير لا يخلو من الشر، والشر لا يخلو من الخير. في لحظة ومضة الدائرة الزرقاء أولى الدوائر بإضاءة عالية لثلاث مرات متتالية واختفى بعدها كل شيء فجأة بما في ذلك تلك الشاشة الضوئية كأنها لم تكن موجودة من الأساس ثم بدأت الأرض في الا هتزاز بقوةِ من تحتنا دون سابق إنذار..

قالت أسيل بتعجب:

- لحظة..... أين العجوز؟؟

اختفت هي الأخرى كغرابة ظهورها لنا، حتى أنه لم يسعنا أن نُعطيها مجالاً من تفكيرنا لما كان يجري حولنا. بدأ يمتد أمامنا جسر يشابه في تكوينه الزجاج ترددنا في البداية أن نسير عليه أو أننا لم نفكر في الفكرة كثيراً فقد كنا سنرجع أدراجنا لكن إلى أين؟ لا ندري حقاً. لكن يبدو أن لهذا المكان الغريب رأي آخر فبمجرد التفافنا للخلف حتى بدأت الطرق والمدينة التي سرنا في طرقاتها تدمر بالكامل، رأينا هذا في لحظات من الذهول، كأن الأرض تجبرنا على السير في طريق واحد، طريق هذا الجسر، ركضنا سريعاً بعدها حيث أنه لم يكن أمامنا خيار السير ببطء لأن الجسر فور أن خطونا أولى الخطوات عليه بدء بالتحطم ذاتياً كما حدث في المدينة خلفنا قبل قليل، فكان الخيار إما أن نركض أو نسقط ونموت، وبكل تأكيد سيقع الاختيار على الركض، لأصرخ في جهاد سائلةً:

- كم من المسافة اجتزنا..

- ركضنا قرابة عشرة أمتار تقريباً..

كنا نرى الناس البالية ملابسهم وأجسادهم من تحتنا لا يحدث لهم شيء رغم هذا الزجاج المتساقط عليهم. لم تكن المسافة من أول الجسر إلى النقطة الحالية كبيرة لكنني شعرت أننا لن نصل أبداً حتى وصلنا لتلة مشابهة لتلك التي وقفنا عليها في البداية. ألقينا بأجسادنا على الأرض لالتقاط بعض الهواء حتى قطعت أصوات تنهداتنا ولهاثنا أسيل بنبره استهزائية:

- من كانت صاحبة تغيير الروتين الممل لإجازتنا الأسبوعية، أنا عن

نفسي أنسحب عما قلته أريد إكمال فيلمنا (المالانهاية) أفضل بكثير من هذا الذي نعيشه..

خرجت منا أصوات ضحك ممزوجة بلهاثنا لكن كانت أسيل على حق أردنا كسر الملل صحيح لكن لم يكن هذا ما نقصده.

****

بدأت رقعة الأرض أمامنا تتغير مرة أخرى لكن لم تتغير لجسر هذه المرة بل بدأت مربعات تتشكل وتترقم تلقائياً..... ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ..... حتى وصلت ١٠٠، وظهرت بعدها بعض الرسومات المختلفة على تلك المربعات، لا يعقل أكُل هذا التشويق والإثارة من أجل هذا!! من أجل..... قلنا ثلاثتنا في صوتٍ واحد:

- لعبة السلم والثعبان!!

لم تمر إلا ثواني حتى إلقاءنا تلك الكلمة ثلاثتنا في آن واحد "لعبة السلم والثعبان" حتى كان للعبة تصرف يجعلنا نصحو من دهشتنا ليدخلنا في دهشة لا تقل عن سابقتها، بالطبع لم تكن لعبة سلم وثعبان عادية هل كان من المفترض أن نتوقع شيئاً عادياً؟ بدأت المربعات بالارتفاع لكن ليس بشكل عشوائي، المربعات التي تصل رأس الثعبان بذيله ترتفع والمربعات التي تصل بداية السلم بنهايته يحدث معها نفس الشيء. لم تكتفي اللعبة بهذا فما الغريب في هذا حيث تحولت السلالم من سلالم مرسومة لحقيقة وما زاد الدهشة هي تلك الثعابين التي تحولت لحقيقة ويبدو أنها بدأ ت تشاركنا الهواء أيضاً، من المؤكد أننا لن نجبر أيضاً على لعب هذه السذاجة.

شعرت بشيء يلامس معصمي الأيسر نظرت لجهاد وأسيل وجدتهما يطيلان النظر لمعصمهما الأيسر أيضاً يبدو أنني ليست الوحيدة من تشعر بهذه الحركة الغريبة، أعدت النظر لمعصمي فوجدت أسورة تتكون لتحيط بيدي كان عرضُا لا يتعدى الخمس سنتيمترات تحوي زر ذو لون أحمر ولوح صغير إلكتروني. سمعت صوت ارتطام مجسمات بالأرض كان الصوت صادراً من خلفنا استدرنا ثلاثتنا فوجدنا الجسر يتكسر وتسقط منه آخر قطعة حتى اختفى تماماً وذهب معه أي أثر يدل عليه كأنه لم يكن، أدركنا أن اللعبة تحتجزنا هنا وتمنع أي أملٍ لنا للرجوع لتُجبرنا على اللعب، لم يكن لنا أحقية الاختيار.

****

ظهر ضوء يكاد لا يغطي عشر سنتيمترات كان مصدره إسوارة جهاد.

- أعتقد أنها إشارة دالة على أنك أول من سيبدأ في اللعب جهاد..

كانت هذه الجملة ناتجة مني، ضغطت جهاد على الزر الراقد على الإسوارة لحظات وظهر على اللوح الصغير رقم (٣) أنار بعدها المربع الدال على هذا الرقم، فهمنا أن الإسورة ما هي إلا تصوير حديث ومختلف للنرد المتعارف عليه لدينا. تقدمت جهاد للمربع نتج بعدها نفس الضوء لكن هذه المرة من إسورة أسيل ضغطت الزر، نتج رقم، تقدمت أسيل، وكنت أنا آخر من نتج من إسورتها الضوء، يبدو أن اللعبة قد رتبتنا حسب أسبقية دخولنا لها، تبعتهم بنفس الخطوات ما كان هناك ما يستدعي الدهشة حتى الآن كانت لعبة عادية فيما عدا ما أخبرتكم به من قبل تلك الثعابين التي لم تعد تدل على أنها

مرسومة.

بقينا على هذا الحال نتبادل الأدوار نتقدم خطوات بعدد الرقم الظاهر على الشاشة وعند ظهور رقم على مربع يستقر عليه بداية السلم تصعد صاحبة الرقم على هذا السلم لم يكن هناك ما يدعو للخوف حقاً إلى الآن. بدأنا نتبادل أطراف الحديث ونحن نلعب لكي نصرف بعض من الوقت دون الشعور بالملل، قلت مخاطبة جهاد:

- هل تذكرين جهاد عندما كنا نجتمع ثلاثتنا للعب السلم والثعبان ونحن صغار..

قالت أسيل مستفهمةً:

- لا أذكر حدوث شيء كهذا، حتى أني لم أكن أعرفكما من الأساس إلا بعد عمر الخامسة عشر..

ردت جهاد بابتسامه:

- نعلم إنك لم تكوني موجودة، تقصد ماهر..

قالت أسيل بتعجب:

- ماهر! من يكون هذا، لم تذكُرا اسمه أمامي من قبل..

قلت:

- كان صديقنا في القرية التي كنا نعيش فيها سابقاً في صغرنا، لكنه غادرنا عند بلوغنا الست سنوات تقريباً، غادر مع عائلته لمنطقة أخرى..

أكملت جهاد:

- كنا نحب لعب تلك الألعاب الجماعية وبالأخص السلم والثعبان، كنا نجتمع في إحدى بيوتنا أو تحت مظلة في حديقة الزهور المجاورة لمنازلنا..

قالت أسيل:

- ماذا حدث بعد أن غادر، هل توقفتم عن اللعب، هل تواصلتما معه، ماذا يفعل الآن..

قلت:

- على مهلك ما كُل هذا، لا نعلم عنه شيء الآن أما عن اللعب ظننا في البداية أننا سنتوقف عن اللعب لأن هيكل اللعبة لم تكن لنا كانت له فاعتقدنا أننا لن نتمكن من اللعب مره أخرى بالإضافة لم نكن نقدر شراء واحدة فمصروفنا في ذلك الوقت لم يكن يكفي لشيء، لكـ....

قاطعتني جهاد:

- لكن ماهر أعطى اللعبة هدية لأماتا قبل ذهابه فقد كان يحبها، حقاً لم تر كيف كان ينظر لها، أعتقد أنه كان يتحجج باللعبة ليقابلها فقط..

هتفت أسيل بابتسامه:

- تقصدين حِب طفولة إذاً، أكملي..

ابتسمت لهما وهـ ما يتحدثان عن حب ماهر لي الذي لا أُنكر أنني كنت أبادله نفس المشاعر حينها ربما اختفى كُل هذا الآن، تركتهما بسبب مقاطعة صوت عقلي لي في منتصف لحظاتنا تلك كما يحاول دوماً أن لا يجعل لي مفرجاً للاستمتاع حتى لو للحظات لأفكر فيما

سيحدث بعد ذلك هل هذا كل ما ينتظرنا حقاً وما علاقة تلك العجوز غريبة الأطوار بما نحن نفعله الآن نظرت لصديقتي كان يبدو عليهما الاستمتاع كأنهما لا يفكرا فيما سيحدث بعد قليل، لا تعلمان ما تخبئه لنا هذه اللعبة، وهو ما لا أعلمه أنا أيضاً، رجعت بعقلي لهما لأسمع أسيل تقول:

- لم أتصور أن لعبة السلم والثعبان بهذه الروعة عندما

نكون نحن قطع اللعب..

- سنرى مدى روعتها عندما تصل إحدانا للثعبان..

قالتها جهاد مازحةً ثم تعالت ضحكاتهما بينما كنت أفكر في منطقية ما قالته جهاد فقد كانت هذه أكبر مخاوفي إلى الآن. استمررنا في اللعب كنت من تقف على مربع ذو الرقم الأعلى وذلك على الرغم من أنني كنت قطعت اللعب التي أعطيت الدور الأخير في التحرك، ثم تبعتني في الترتيب جهاد ثم أسيل. ظهرت على شاشتي الصغيرة رقم (٥) بعد ضغطي على الزر.

لحظة.........

هدوء يعم المكان.........

نعم كنت أول الحاصلات على الثعبان، كم هذا مضحك أتحدث كأني حصلت على هدية، حيث أضاء المربع (٦٢) هل تعلمون ما معنى هذا؟؟ سأسقط ما يقارب الخمس أسطر كاملة لأصل للرقم (١٩) كنت على الرقم (٥٨) كنت قريبة للنهاية، لكن حقاً لم تكن هذه أكبر مخاوفي، فكيف لي أن أتمكن من الوقوف بثبات وأنا سأقف على رأس ثُعبان كبير وهيئته مخيفة؟ وكيف سأسقط كل هذا الارتفاع دون أن أنتقل للعالم الآخر؟

(٤)

تقدمتُ بخُطى مُتثاقلة وأنفاسٍ مُتقطعة حتى وصلت لرأس الثعبان الذي كان يبدو أصغر من بعيد، تقدمت الخطوة الأخيرة والتي كانت وقوفي على رأس الثعبان وفي أقل من لحظة أو هذا ما بدا لي رما بي الثعبان لأعلى ليعطي المجال لرأسه بالتحرك وعند اقترابي منه غرز أنيابه في خنصر يدي اليسرى وثبتها بإحكام به ليرمي بي إلى المربع الواصل لذيله ظننت أن كل شيء انتهى بوصولي للمربع (١٩) لكنني ما زلت أشعر بتلك الأنياب مغروزة في إصبعي لم تفارقني بعد، نظرت ليدي وإذ بي أجد الثعبان لا يزال مُعلقاً بي.

- ما كل هذا الحب أيها الثعبان اللعين حسناً أدركت مدى تعلقك بي لكن أعتقد أن لحظة الفراق قد حانت فهل يمكن أن تغادرني الآن..

قلتها باستهزاء وتوتر، بالطبع لم أنتظر منه رداً أو تعبيراً يدل على فهمه لكلامي لكن هل سأعيش معه مدى الحياة التي لا تبشر أنها ستطول كثيراً، حولت بناظري ليدي اليمنى لشعوري بشيء يستقر في باطنها فكانت سكين صغير حسناً أعترف أنني لم يعد شعور الدهشة يعلوني عند ظهور أشياء غريبة في أي لحظة بعد الآن حاولت تشغيل تلك المادة الرخوة بين عظام رأسي في ماهية استخدام هذه السكين في مساعدتي لأن ظهورها هنا الآن لسبب، بدأت بطعن الثعبان على رأسه عدة طعنات متتالية لكن يبدو أن هذا الثعبان قد وقع بعشقي لأقصى درجة فهو لا ينوي مفارقتي حتى أنه لم يبدي أي شعور بالألم من تلك الطعنات.

- حاولي قطع رأسه لا طعنه فربما يتركك..

كانت فكرت أسيل منطقيه بعض الشيء لكن الكلام سهل فمعنى كلامها أن أقوم بذبح الثعبان كم كانت الفكرة مقززة في عقلي حاولت تدارك الوضع وأقدمت على فعل ما قالت، أنفاسي المتقطعة تعالت بعض الشيء نظرات صديقاتي التي كانت تدل على قلق يعلوهما. كنت على قناعه تامة أن لا حيوان يستحق منا أذيته حتى لو قام هو بذلك، فله الأحقية فهو لن يقدم على فعل ذلك إلا لحماية نفسه منا نحن البشر، حقاً نبدو أخطر مما نبدو عليه أمام مرآتنا.

أمسكتُ السكين بإحكام وبدأ ت بتطبيق فكرة أسيل كان صعباً بعض الشيء وأنا أرى الدماء تتساقط منه لتغرق قدمي كانت لقطة مرعبة في حياتي أتمنى من كل قلبي أن لا تتكرر، وبهذا أكون قد تجردت من إحدى معتقداتي، من إحدى خصالي الحسنة التي لطالما كنت مُتمسكةً بها، أما الآن رميتُها كما أرمي علبة عصير في القمامة بعد أخذي لما أريد منها، وأخيراً سقط الثعبان أرضا منتجاً ضوضاء كأن طائرة قد ارتطمت بالأرض بالرغم من حجمه المتنافي مع ذلك الصوت. وأنا الآن في انتظار تلك الرأس مفارقتي أو أن ترخى الأنياب بعض الشيء لأتمكن من نزعها بسهولة لكن هيهات أن يتركني، كم كان ثعباناً عاشقاً. لم أبُحرَ كثيراً في تفكيري للحصول على حلٍ كان منذ البداية يرسو في عقلي لكنه يتطلب بعض الشجاعة التي لا أمتلكها ولكنني اضطررت أن أقُدم عليه، ربما هذا كان غرض اللعبة من البداية فلماذا أكابر في عدم تقبل الحقيقة، رفعتُ السكين بخطى متباطئة ويدِ مرتجفة، لا أنكر مدى الخوف الذي كان يحيطني في هذه اللحظة وفي أقل من ثلاث ثواني على رفعي تلك السكين سقطت

الرأس على أرض اللعبة كما كان يجب أن يحدث من البداية مصطحبة معها بعض من الدماء التي ما زالت تسيل على قدمي، وبين أنيابه يرقد ذلك الأصبع، أصغر أصابع يدي، نعم كانت تلك الدماء المسالة تخصني هذه المرة، نعم فأنا أماتا الضعيفة بكامل قواي العقلية أقدمت على قطع إحدى أصابعي، أجل كان من المفترض أن أقطعه من البداية، هل كان علي أن أرهق نفسي كل هذه الفترة لكي أتوصل للحل لو قطعتُه من البداية لشعرت بألم القطع فقط لم أكن لأمر بكل هذه المعاناة.

ما زالت دمائي الجميلة تسيل على قدمي كم سأفتقدها وكم سأفتقد ذلك الأصبع الصغير الراحل. سمعت صرخات ناتجة من صديقتاي:

- ماذا فعلتي؟؟

تجاهلت صرخاتهما لأحاول تدارك الوضع الذي أرقد فيه الآن، حاولت منع الدماء من السقوط بلفي قطعة من قميصي الذي كان أبيض اللون لتذهب ملامحه ويصبح كساحة حرب قتل فيها أغلب الطرفين ليخلفوا وراءهم أرضاً سُقيت بالدماء. لففتها مكان الإِصبع المقطوع بقوة لمنع سقوط الدماء وللتأكد من ثبات الخرقة لكن لا أعتقد أن ما فعلته كان احترافياً لمعالجة المشكلة لكن أظن أنه يمنعها لبعض الوقت.

بعد أن انتهيت التفتت لصديقتي لأعطي المجال لأذني بسماعهما، كانت جهاد تعاتبني لما فعلت بصوتها المرتفع ذاك:

- ما هذا الجنون الذي أقدمت عليه؟

لم يبدُ علي أي علامات للاهتمام وكانت أسيل بأسلوبها الراقي تحاول تهدئتي:

- لماذا أماتا كان من الممكن أن تنتظري قليلاً كان من الممكن أن نجد حلاً أخر معاً، لكن لا تقلقي ستصبحِ بخير فقط حاولي تهدِئة نفسك..

قلت لهما:

- لا تقلقا أنا بخير وسأصبح بخير أكثر عند انتهاءنا من هذه اللعبة الملعونة، ما فعلت هذا إلا لدرايتي أن هذا هو الحل الأسرع لنتمكن من إكمال ما بدأنا، أعلم أنه ربما لم يكن الوحيد لكن أنا حقاً بخير دعانا نكمل ما بدأنا..

لم يخرج من فاهي إلا تلك الكلمات الاعتيادية التي كانت حقاً لا تعبر عما أشعر به الآن فقد كنت أشعر بخوف، ضعف، وألم، ولكن يبدو أن توقعاتي صحيحة، أجل لم نكن لنتمكن من إكمالها سوى بأن يفارق ذلك الثعبان يدي وذلك لأن شاشات الأساور توقفت عن العمل و بدأت بالإضاءة مُجدداً بعد تخلصي منه.

أكملـنا اللعبة بتوجيهات تلك الأساور لتعطينا أرقام كان أكبرَها الستة وصعدنا بعض السلالم لكن كان أفضل ما حدث أن لا أحد قد حصل على ثعبان غير الذي كان سبب في توديعي لإصبعي.

****

استمررنا في اللعب كما بدأنا نتحرك حسب الرقم الظاهر على الشاشة الصغيرة المثبتة على معاصمنا نتقدم تلك الخطوات التي لا تتعدى الرقم ستة وبقينا على هذا الحال نتبادل الأدوار، نتقدم خطوات، لا

جديد حتى الآن، بعد بضع دقائق كانت أول من يصل للمربع المشير للرقم ١٠٠، أي إلى النهاية هي أسيل لتبدأ بإصدار صرخات الفرحة لتنشرها في المكان وهي تقول:

- لقد فزت، وهذا غير المعتاد بالطبع، لم أكن أفوز أبداً في أي لعبة كنت أدخلها، هيا ماذا سيحدث الآن؟ .. أين مقابل فوزي..

بدأت ضحكاتنا تعلو وتملأ المكان حينها، إنها أسيل التي سميناها طفلتنا بتصرفاتها الدالة على ذلك كما كانت تتصرف هكذا دوماً، بعد هذا استمررنا في اللعب أنا وجهاد وكانت أسيل تنظر لنا من الأعلى وهي فرحة بفوزها معبرة بذلك ببعض الضحكات والكلمات الدالة على فرحتها التي لا تعرف ما مقابلها حتى الآن لكن تكفيها فكرة الفوز فقط. تبعت أسيل في الفوز جهاد وكُنت آخر من يصل للنهاية وكان هذا غير المعتاد عني.

****

أصبح ثلاثتنا يقف الآن على المكعب ذا الرقم ١٠٠، انتظرنا بضع ثواني لنشعر بهزة تحت أقدامنا، رميت بنظري بعيداً قليلاً لأرى تلك المكعبات التي كانت تكون لوحاً للعبة تنهار واحدة تلو الأخرى، عدت بنظري مرة أخرى أمامي فوجدت جسراً يتكون أمامنا يشابه ذلك الذي عبرنا من عليه في البداية، ألواح زجاجية تلتصق بداية كل واحدة مع نهاية سابقتها في مشهد لا يصدق، أصبحنا نحن الثلاثة ننظر بدهشة حتى قطعتُ ذلك الشرود:

- أركضا بسرعة إن أردتما أن نرى بعضنا مرةً أخرى..

قلت ذلك وقد تقدمت عنهما ببضع خطوات على ذلك الجسر ثم لحقتا بي بسرعة، بدأ نا بالركض سريعاً حتى وصلنا لمسافة تبعدنا عن المكعبات ببضع مترات، توقفت ونظرت خلفي فرأيت المكعبات تنهار واحدةً تلو الأخرى ومع كل انهيار يتولد معهُ سحابةً من الغُبار، بقيت على هذا الحال حتى سقط آخر مكعب وتولد عن هذا كومةً من الصخور أسفل منا وسحابة غُبار كبيرة تغطي السماء فوقنا.

قطع شرودي في هذا المنظر صوت مخاطبة جهاد لي:

- هيا أماتا فلنكمل طريقنا، أعتقد أن علينا الاعتياد على هذه المشاهد من الآن لأنه يبدو أنها سوف تتكرر كثيراً..

التفتُ إليها وأنا ألفظ كلمتها:

- فلنُكمل..

لا أعلم كم استغرقنا من الوقت لنصل لنهاية هذا الجسر الزجاجي لكن كل ما أتذكره أنه لم تنطق أي واحدةً منا بكلمة طول هذا الطريق، لا أدري ما الذي أصابنا لكن أعتقد مما رأيته على وجهي جهاد وأسيل أنهما قد فقدتا الرغبة في الكلام ولا أظن بأني كنت أفضل حالِ منهما.

نحن الآن نقف على آخر لوح زجاجي من هذا الجسر وتقابلنا رقعة تملؤها أشجار متفرقة تبدو للوهلة الأولى أنها غابة لكني لم أعد أثق في هذه الأرض كثيراً. نسمع الآن من خلفنا صوت تكسر زجاج أظن أنني أعلم جيداً ما مصدره، قلت لرفيقتي دون أن ألتفت خلفي وأنا أمشي تلك الخطوات الأخيرة على هذا الجسر:

- أسرعا فهذه الأرض كما يبدو لن تمنحنا فرصة للتفكير..

ثلاثتنا نقف الآن على أعتاب هذه الغابة ولا شيء خلفنا سوى هاوية كبيرة لا نرى أخرها بعد أن تلاشى الجسر تماماً.

****

ضباب كثيف، أصوات حيوانات تعوي في الخلفية، شبح شخص يمشي من بين الأشجار، عباءة سوداء تمسح تراب الغابة، أظن أنه كان شبح امرأة، إنه شبح تلك العجوز، عادت مرةً أخرى بوجهها القبيح هذا، سكنت عن الحركة أمامنا، أمامي تحديداً.

تلمست يدي اليسرى رافعةً إياها بيدها الشاحبتين تقربها أكثر لوجهها تتمعنها، تتفحصها جيداً، بالتحديد مكان ذلك الأصبع المفقود، خنصري المفقود. سحبت يدي سريعاً من بين أصابع تلك العجوز غريبة الأطوار وتراجعت قدماي دون إرادة مني للخلف بضع خطوات أعتقد أنها ردة فعل طبيعية جداً لما حدث، لم أحب أبداً طريقة لمسها تلك، ولا حتى ملمس أصابعها الخشنة والمتحجرة كالصخر، ابتسم ذلك الوجه الشاحب فور سحبي ليدي، لم أكن أعلم أنها تعرف معنى الابتسام حقاً، هذا مثيرٌ للدهشة، تراجعت العجوز خطوتين للخلف، ثم قالت:

- يبدو أن الخسائر لم تكن كثيرة، هذا جيد..

كم يبدو هذا مدهشاً للغاية، العجوز مازالت تقدر على التحدث ولكن هذه المرة تمكنت من ترتيب جملة كاملة، صمتٌ تام، لم تنبث إحدانا ببنت شفه، لم نرد أن نقاطع كلامها لعلها تريد أن تكمل ما

بدأته، وهذا ما حدث فعلاً:

- سنرى متى ستكون الخسارة القادمة، ومن ستكون صاحبة الحظ السعيد..

كان وجهها يبتسم نفس تلك الابتسامة التي لا تدل على شيء سوى التلاعب بنا، أكملت بعدما تقدمت بنصف جسدها العلوي مُنحنية لنا:

- عليك؟؟

كان إصبعها يشير إلى أسيل.......... صمتٌ مرةً أخرى، التفتٌ بناظري لأسيل، كانت وقع الكلمة عليها يكفي لأن تتصلب مكانها، ويبدو أن الدماء قد جفت في عروقها، شحب واصفر وجهها تماماً، أزاحت العجوز نظرها لي وهي تشير بنفس الطريقة ثم تفوهت:

- أم عليك؟؟

ثم حدث هذا مع جهاد أيضاً، هي لم تكن تقصد أسيل

بذاتها، هي فقط تريد أن تلعب معنا لعبة أعصاب، صدح صوتٌ في الأرجاء نتج عن صرخت جهاد في وجه العجوز:

- ما الذي تريدينه منا... توقفي عن هذا... توقفي عن فعل هذا... ما غايتُك..

صمتٌ تبِعهُ صو ت أسيل الذي هدأ وأصبح لا يُسمع من شدة خوفها يصحبه دموع تغطي وجنتيها، أجزم أن صوت اصطكاك أسنانها كان أعلى من صوتها:

- أرجوك نريد الخروج من هنا لم نعد نحتمل أكثر من هذا ولكي ما تريدين أنا أعدك بهذا كل ما تتمنيه سيحدث المهم ألا نبقى على هذه الأرض..

مازالت الابتسامة الباردة تعتلي وجه العجوز والصمت أصبح سيد المكان بعد تلك الكلمات النابعة من أسيل، في الحقيقة لم أتوقع رداً أو كلمة حتى من تلك العجوز، لم أتوقع منها شيء أكثر من الصمت، هي تقول ما تريد فقط لا أكثر من ذلك،

- توقفا عن فعل هذا، هي لا تسمعنا من الأساس، عليكما أن تقبلا فكرة تواجدنا هنا لأ نه على ما يبدو بأنه لا توجد فكرة أخرى مطروحة غيرها..

حاولت تهدئتهما بتلك الكلمات التي باتت تُطمئِنُني ليقيني بمدى مصداقية ما أقول.

صمتٌ آخر، وابتسامة لا تفارق وجه تلك العجوز وهي تحدق بنا بجمرتيها تلك، استمرت في الابتسام ثم أدارت ظهرها لنا وشرعت في المُضي للأمام،

- هيا بسرعة..

هتفت لجهاد وأسيل بعد أن سبقتهما في الركض خلف العجوز، ركضنا بسرعة في محاولة منا باللحاق بها لكنها لم تكن موجودة كأنها اختفت بين أشجار الغابة، حتى هذه المحاولة باءت بالفشل.

توقفنا نلتقط أنفاسنا بعدما تأكدنا من أن العجوز قد تلاشت تماماً.

(٥)

نزلت علينا خيوط الظلام لتُنبئنا بحلول الليل أخيراً بعد يومٍ طويل، لم يكن القمر يتوسط السماء كعادته ليضيئها أو تلك النجوم التي من عادتها أن تجمل السماء بترتيبها العشوائي عليها جاعلةً من السماء لوحة لا مثيل لها، كم اشتقت لهذا المنظر الذي كنت أراه من شرفة غرفتي الصغيرة، لكن حشرات سراج الليل الصغيرة تلك التي تملأ الغابة كانت تؤدي الغرض بعض الشيء حيث أن الضوء الخارج منها كان كفيل ليمكننا من رؤية بعضنا البعض ولنتمكن من رؤية مكان ما تخطوا أقدامنا عليه. بحثنا في الأرجاء عن شيء يصلُح للأكل فقد بدا صوتُ بطوننا يكون مسموعاً في أذاننا، وبعد بحث في أرجاء الغابة وجدنا شجرة تفاح لم تكن أغصانُها مرتفعةً كثيراً كانت قريبة على مستوى رفعي لذراعي، تمكنت كل واحدة منا من التقاط بعضها وشرعنا مباشرة في تناولها. بعد تناولنا للطعام هممنا لنسير ولما نظرت لجهاد من خلفنا قلت لها بنبرة ضاحكة:

- ماذا تفعلين جهاد..

- أليس واضحاً، أجمع بعض التفاح فلا أعلم كم سنبقى هنا وهل سنجد طعاماً آخر، لا أدري عنكما لكنني أضمنُ نفسي..

هنا تركنا المجال لأنفسنا بالضحك قليلاً، وبعد انتهاء جهاد من جمع تفاحها سرنا قليلاً في أرجاء المكان بحثاً عن مكان للمبيت فيه بعد هذا اليوم الطويل والشاق ولم تبدو لنا فكرة أسفل الشجرة أفضل خيار بسبب تلك الحشرات متنوعة أشكالها وألوانها المتواجدة بكثرة

هناك ولخوفنا من تواجد ما هو أكبر من الحشرات، فالمكان هنا أشبه بالغابات المهجورة لإحدى أفلام الرعب الشهيرة المكان حقا لا يُطمئن بالخير أبداً.

بعد بحثٍ طويل نقف الآن على أشراف ما يشابه القرية أضواؤها خافتة ممتدة على أطراف الطريق لا تزيد قوة الإضاءة فيها عن تلك الحشرات الطائرة التي رأيناها في الغابة رغم أنها تعبر على أن هذا الضوء ناتج من اشتعال شعل من النار وتلك الإضاءة الناتجة منها لم تكن تعبر عن كونها نارً، ليست كتلك التي كانت في أرجاء مدينتي التي كانوا يستخدموا فيها مصابيح زجاجية متعارف عليها لدينا، كالعادة أمرَ غريبَ كسابقاته نارٌ لا تُضيء كم هذا سيف، والبيوت التي تشبه بعضها البعض كتلك التي رأيناها في بداية طريقنا وصولاً بهذه الأرض المشؤومة متراصة بجانب بعضها على استقامة الطريق يفصل بين كل بيت والأخر طريق يبلغ طوله ما لا يزيد عن المتر تقريبا، طرقنا باب إحدى تلك البيوت لكن لم يكن يصدر لنا صوتٌ من الجانب الآخر، أقدمت جهاد على دفع الباب لتبدأ بتطبيق جهِد قليل عليه ليفاجئها الباب بتحركه بسرعة غير متوقعة بالرغم من أنها لم تبذل عليه أي جهدِ أكثر مما يتطلبه رفع قلم. دخلنا لنتفحص المكان من الداخل وخلفنا تسير أسيل بعد إغلاقها للباب.

ما كان الطابق الأول إلا الجزء في المنزل لاستقبال الضيوف كأنها ساحة كبيرة يتراص على أطرافها بعض الوسائد المخصصة للجلوس ولا يوجد معالم دالة على وجود غرف باستثناء ذلك الباب التي همت جهاد بفتحه مع فتح فمها قائله:

- إنه مطبخ، تعاليا ربما نجد شيء للأكل بدل تلك الفاكهة التي تناولناها في الغابة، أنا حقاً لم أشعر بالشبع بعد..

جهاد كعادتها لم تتغير بعد ما مررنا به ما زالت تفكر في إشباع بطنها، ولكن ماذا يمكن أن يخرج لنا من هذا المكان الذي غطاه التراب من جميعِ الاتجاهات جاعلاً منه أكثر حرارة من شمس الظهيرة. بعد تفحصِنا للمطبخ بأكمله لم يخرج لنا كوب ماء حتى كما توقعت.

خرجنا من المطبخ واتجهنا نحو السلم لصعود الطابق العلوي وكان يساعدنا في رؤية طريقنا ومعالم هذا البيت بعض من الأضواء المنتشرة بشكل مرتب بارتفاع واحد على حوائط المنزل مشابهة لتلك التي رأيناها في الشوارع ونحن قادمون لكن تبدو أصغر بكثير.

صعدنا السلالم بخطى بطيئة بعض الشيء، كان يعلوها التراب من جميع الاتجاهات ويبدو عليها التهالك بسبب تلك الأصوات الخارجة منه مع كل خطوة نخطو بأقدامنا عليه، هذا المنزل يبدو أن لا ساكني له لكننا اضطررنا للعبور فوق كل تلك الأتربة التي يتخللها تشكيلة لا مثيل لها من الحشرات المميزة والغريبة. توقفنا عند السُلمةِ التاسعة على صرخة أسيل.....

سألتُها:

- ماذا هناك أسيل؟

أجابت أسيل بنبرة يتخللها الخوف:

- لا... لا شيء، يبدو أنه تهيأ لي عبور شيء من فوق قدمي..

لننظر أسفل أقدامنا لنجد تلك الفأران المتراصة على أطراف السلم بترتيب غريب كأنها مأمورة بذلك. عند هذه اللحظة تركنا الخطى

المتباطئة خلفنا وركضنا للأعلى لا أذكر كم من السلالم صعدنا ولكن أعتقد أنها خمسة عشر سِلمة.

كان الدور الثاني من المنزل يحتوي خمسة أبواب مغلقة، بدأنا في تفحصها واحدة تلو الأخرى، وجدنا أن البابين المتقابلين في بداية الممر ما هي إلا غرف يتشابهان في التصميم ذات نافذة وحيدة ولا أعتقد أن تلك الستارة الممزقة المعلقة أعلاها قد تمكنت من تغطية سوى بضع أجزاء من خشبها، فأنا أرى بوضوح شكل تلك النافذة التي يبدو عليها القدم كأي شيء في هذا المكان، ويتوسط الغرفة سرير خشبي يعتليه مرتبة غطاها التراب وعلى يمين السرير طاولة صغيرة ذات درج يفتقد مقبضه، أما البابين اللذين يتبعانهما كانت غرف أيضاً لكن كان فرقهما أنهما يمتلكان سرير أكبر بقليل من سابقتهما وعلى كل جانب طاولة بالإضافة إلى باب داخل الغرفة ما كان سوى غرفة صغيرة فارغة تماماً، والباب الخامس أبى أن يطلعنا على ما بداخله يبدو أن مفصلاته عالقة، تركناه راجعين للغرف لسحب مرتبتين من كل غرفة فكُنت أنا وجهاد كل منا تجر واحدة من خلفها لندخل لإحدى الغرف الكبيرة.

أصابنا الإجهاد ثلاثتنا بعد هذا اليوم العجيب فقررنا أن نمنح أنفسنا قسط من الراحة، ارتمت كل واحدة منا على تلك المراتب المتحجرة التي جررناها من الغرف الأخرى لنجتمع في غرفة واحدة، كانت المراتب يتخللها الغبار والأتربة حتى أصبحت جزء منها بالرغم من ضربنا لها عدة ضربات أملين أن تخرج ما فيها لكن كانت تلك المحاولة فاشلة حتى بقيت على ما هي عليه، اكتفينا بالنوم عليها على هيئتها تلك.

****

استيقظتُ على أشعة الشمس المتسربة من فتحات ستارة تكاد لا تغطي نافذة مُهترئة أخذت مكاناً لها على حائط في يمين الغرفة، لأبدأ بتجميع شتات أفكاري لأتمنى أن ما حدث في الليلة الماضية كان مجرد حلم أو كابوس المهم أن لا يكون ما مررت به حقيقة، لكن تلك النافذة البالية بستائرها الرثة لم تكن دالة إلا على أن ما حدث لم يكن سوى الحقيقة، وتصلب ظهري الذي نتج حديثاً من هذا السرير المتحجر الذي قضية ليلة أمس عليه، وألم في يدي اليَسرى نتيجة إصابتي بالأمس، حسناً يبدو أن كل شيء مازال حقيقة. هممت بالنهوض ناظرةً لصديقتي الغائبتين عني وعن العالم الآن بنومهما العميق، لكني قطعت هذا النوم حتى نكمل رحلتنا التي كما يبدو أنها لم تنته بعد. استعدادنا فور استيقاظهما وقبل خروجنا من تلك الجدران التي خالت نفسها منزِلاً قالت جهاد:

- ماذا سيحدث الآن؟

أجبتُها:

- لا يهم أن نعرف فهذا دور اللعبة أن تُعْلمنا بالتطورات الجديدة أما ما يهم أن نحاول البقاء على قيد الحياة، أَن نبقى معاً حتى خروجنا من هنا بدون خسائر أكثر من هذا..

رافعةً يدي بابتسامه وأنا أشير مكان الأصبع المفقود. هممنا بالخروج وبدأ نا السير نحو رحلتنا المجهولة هذه، حتى ظهر لنا شيء من الأمل، آدمي غيرنا يظهر على هذه الأرض، كان رجلاً في العقد الثالث من عمره عليه آثارٌ من الثمالة تقدمنا منه بسرعة لعلنا نحصل على دلائل تقودنا لاتجاه نتمكن من السير عليه، سألته جهاد:

- أيها السيد، هل أنت من ساكني هذا المكان..

صمت.........

أكملت:

- حسنا، هل تسمح بأن تطلعنا على طبيعة هذا المكان وما يحدث فيه..

إن الأمر غريب بعض الشيء فكيف لنا أن نثق في كلام شخص يبدو ثملاً لا يعي أين تخطو قدماه لكن لم يكن في الأرجاء غيره ونحن لم نرى بشريا منذ فترة لا تعتبر قصيرة باستثناء تلك العجوز التي نبث من فمها بعض الكلمات المعدودة، فكان هذا أملُنا الوحيد حقاً أن تخرج بعض الكلمات من فم ذلك الرجل لكن كما توقعت لم يحدث جديد، على الرغم من محاولة جهاد مرةِ أخرى بتوسل أكثر عكس طبيعتها:

- أرجوك على الأقل أخبرنا كيف يُمكننا الخروج من هنا لنعود لديارنا..

لكن دون جدوى يبدو أن الناس هنا يعشقون السكوت. قلت لجهاد بنبرة لامبالاة:

- فلنستمر بالمشي في طريقنا حتى لا نضيع المزيد من الوقت، لن نحصل على أي جوابٍ يفيدنا..

نظرت إلينا بشيء من الحزن وهممنا بإكمال طريقنا حتى سمعنا ذلك المتحدث من خلفنا بصوته الخشن يتخلى عن بعض الكلمات في جعبته لنتلقاها بكل اندهاش مرةً لتحدثه لنا وهذا الشيء كان يبدو مستحيلاً ومره لما سمعناه منه. حيث كانت كلماته:

- هذه اللعبة ظاهرها غير باطنها وطريق النجاة من هنا هو البقاء لشخص واحد فقط على قيد الحياة.....

قاطعته جهاد:

- هذا تقريباً ما قالته العجوز..

ليكمل حديثه دون أن يرفع عينه حتى تعبيراً على أنه سمعها:

- ومهما كان توقيت اتخاذ هذا القرار فليس بالضرورة حتى ترحل إحداكُن عائدة لوطنها أن تُكملوا جميع الألعاب الخمس، فأفضل حل حتى لا تكون الخسائر المعنوية أكثر من الجسدية أن يتخلى البعض من أجل الآخرين فالقادم لا يشبه ما مررتم به..

أشار بأصبعه على يدي الملفوفة بقطعة القماش التي اختفت ملامحها من كثرة الدماء التي امتصتها مُعبراً لي أن أمدها له دون أن يخرج أي كلمة، فعلت ما فهمت حتى بدأ هو الآخر بفك القماشة ومعالجة جرحي باستخدام أدوات أخرجها من حقيبة رمادية كثرت فيها الرقع معلقة على كتفه الأيسر، حدث هذا وهو يكمل حديثه:

- فمن سيقع عليهم الاختيار ليضحوا بأنفسهم لن يفارقوا الحياة فوراً حيث أن اللعبة لا تعتبر هذا عادلاً فتخضعهم للتصفيات، هي مرحلة تعتبر غريبة بعض الشيء لم أمر بها فقط كنت متفرجاً لا أكثر وذلك لأنني لم أقدم على أذية أحد وأن البعض لم يستغل ضعفي ليكملوا على قيد الحياة.....

قالت أسيل:

- ماذا تعني بتلك التصفيات ولماذا لا يمكننا أن نُكمل جميعاً حتى

النهاية، ما الذي يمنع هذا..

كانت صديقتاي تُحاولان فهم ما يقول لا أنكر أنني كنت أفهم ما يقول كذلك لكنني اكتفيت بالاستماع والنظر في كيفية تطبيبه لجرحي وقد أخرج الآن مادة خضراء اللون موضوعة في علبة زجاجية شفافة وكان قوامها لزجاً وقام بوضع القليل منها مكان الإصبع المفقود ليقوم بعدها بتضميده جيداً بقطعة قماشة تبدو نظيفة بعكس شكل الحقيبة التي خرجت منها، وهو اكتفى بعدم الرد على أي من السؤالين السابقين:

- ستقابلون أناس كُثر يشبهونني لكن ليس بالضرورة أن الكل سيتجاوب ويرد على أسئلتكم وذلك لأن اللعبة تمنع هذا فيتجنب الجميع الحديث لعدم حدوث أي مشكلة تقع بالضرر عليهم تضررهم أن يعيدوا تلك التصفيات، فأتمنى أن لا تخبروا أحداً عن حديثنا هذا أو أن شخص قد كلمكم حتى لأنني ما زلت في احتمالية أن يطالبوا بمشاركتي في إحدى تلك التصفيات لمجرد أن شخص آخر يود العيش فقد يستغل هذا ضدي ويستخدمه كدليل على تجاوزي لإحدى قوانين اللعبة، فلا أريد أن يمسكوا علي أي ذلة رجاءً لمجرد مساعدتي لكم..

كانت كلماته كدليل لنا لنسير عليه ومتاهة في ذات الوقت. فبعد قوله لتلك الجمل المتراصة مع بعضها كالمتاهة اختفى فجأة من أمامنا ليتركنا في تلك العلامات الغير مفسرة على وجوهنا وفي عقولنا، حيث أنه لم يتكلم عن ماهية الألعاب القادمة وهل ستكون ببشاعة الأولى أم أقل من ذلك أم أكثر، وأنه من الممكن أن ننهي هذا الهراء بأسرع

وقتِ، والأفضل لنا عدم الإكمال، لكن كيف ولماذا؟ هل لبشاعة القادم أم لعدم قدرتنا على تخطيه؟ وما أصل تلك المبارزة التي لم تظهر لي أنها مفهومه أبداً، أحتاج لتفسير وشرح مفصل عنا ما سمعته. ومع ذلك الحق يقال فقد عالج جرحي بشكل جيد يبدو أفضل حال الآن مما كان عليه. لكنني تمنيت لو لم أسمع تلك الكلمات كان من الأفضل لي أنا أسير دون دليل بدلاً من نصف دليل.

بعد انتهائنا من الحديث مع الشاب غريب الأطوار ذاك الذي لم يُصرح لنا عن اسمه حتى بدأنا في إكمال طريقنا، طريق لا يظهر له آخر، البيوت مازالت متراصة على الجانبين يتقدمها بقليل تلك الشعل المطفأة الآن، لتقول جهاد:

- ماذا سيحدث إن لم نتمكن من الخروج من هذا المكان أو حدوث أي شيء مما كان يقوله ذلك الرجل..

قالت أسيل بحماس:

- لا تبدأ بالتشاؤم على الفور مازال أمامنا أربعةُ ألعابٍ أخرى على حسب ما أتذكر في بادئة الطريق..

قلت لهما:

- دعاكما من كلام ذلك الغريب ربما كان يهذي أو أنه قال ما قال ليسكتنا ببعض الأشياء السخيفة التي لا يبدو أن لديه أي حقيقة يبنيها عليها ألم تريا شكله لا يدل على خروج كلام موثوق..

قالت جهاد:

- لكنه عالج جرحك بالرغم من أنه لم يكن يدل شكله على مقدرته

لفهم أي شيء في الطب أيضاً..

قلت:

- حسناً معك حقٌ في هذا لكن لم أفهم أي شيء مما قال لم يكن كلامه مفهوم حتى نتمكن من ترجمته لعقولنا ماذا سنفعل..

صمتتا لأكمل:

- بالطبع سنكمل ما بدأنا لا يوجد أمامنا حلٌ آخر لنتمكن من الخروج، لا تفقدا الأمل بهذه السرعة..

بدأ الطريق في التضاؤل شيئاً فشيء حتى شعرت أنه لا يتسع إلا لثلاثتنا يبدو أننا الآن على أشراف أن نبدأ المغامرة الجديدة، أكملنا السير حتى وجهَنا الطريق لنفق، التفتُ على جانبي فلم أرى البيوت، جميع البيوت قد اختفت نظرت خلفي لم أجد أياً منها كان كل ما تراه عيني هو الطريق الذي مشينا عليه وصولاً بهذه النقطة هذا ما تبقى من هذه المدينة.

نحن الآن نقف أمام فوهة النفق.

(٦)

كانت عمتي دائماً ما تأتي إلا وهي تجُر ما يُدعى بالعريس من خلفها غير مبالية في طبيعة ما إذا كانوا مؤهلين للزواج أم لا، فها هي تقبل علي الآن مع أحد أولئك المدعوين بالعريس آملةً أن تحظى برؤيتي وأنا أرتدي فستاني الأبيض كما تقول دائماً حتى حفظت ما تقول، كانت محاولاتها الدائمة تلك لتعوضني عن فراق أمي على حد اعتقادها لكنها لم تنجح في هذا حتى فهي لم تتمكن من تطبيق الأمومة على أبنائها فكيف سيكون الأمر معي.

ها أنا أجلس على كرسي في غرفتي يقابلني مكتبي المبعثر ببعض الأوراق ويعتليه على الجدار تلك الجملة التي أحببتها فكتبتها بخط يدي وجملتها بإطار أبيض جميل "ليس المهم أن يموت الإنسان قبل أن يحقق فكرته النبيلة بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت" غسان كنفاني . لطالما أحببت كتاباته رغم قلة ما قرأت له.

بعد انتهائي من لبس فستانٍ كان ما وقع عليه الاختيار من قبل أسيل بعد بحث دام لنصف ساعة في جدران خزانتي باعتبارها صاحبة الذوق الأفضل بيننا. جهاد وأسيل ينظران إلي وهما يجلسان من خلفي على السرير وهن يقلن لي الوصايا السبع التي من ضمنها تلك الابتسامة المبالغ فيها المرتسمة على وجهي احتراماً للضيف الذي سيقبع أمامي فلا شأن له بمشاعري المختلطة بأفكاري، فهو لا يستحق مني سوى إكرامه لكونه إنسان حتى ولو لم يكن سيشغل حيز أكثر من ساعة في حياتي، وبعد أ ن انتهيا من كلامهما سحبتُ القفاز خاصتي ذو اللون الأسود والمزين ببعض الفرو الذي لا يختلف لونه عن القفاز لأرتديه وأخرج لاستقبال العريس الجالس في منتصف منزلي، جلست

لنصبح قبالة بعضنا البعض، كان يجلس بنفس الزي الذي اعتدتُ رؤيته دائماً، كم أكره هذه الزيارات التي تنتهي بالرفض.

بدأ الحديث وأنا أسمع ذلك الكلام الروتيني عن الاستقرار وتحمل المسؤولية دون أن أبدي أي ردة فعل على وجهي غير تلك الابتسامة الموصى بها، أقبَلت عمتي علينا وهي تحمل بين يديها صينية وضع عليها كأسين من الشاي وكوب ماء وضعتها أمامنا في ابتسامة غير مبررة وهي تقول:

- أرى أنكما انسجمتما في الكلام مع بعضكما البعض، كنت أشعر منذ رأيتك أن أفكاركما ستتوافق معاً..

قالت ذلك وهي تأخذ خطواتها بالخروج، أراهن أنها لا تفقه معنى تلك الجملة التي تفوهت بها للتو، أعتقد أنها قد سمعت بها من والدتها التي بدورها سمعتها من والدتها كأنها ميراث يورث حتى الجيل السابع. في وسط حديثه وجه لي سؤالاً:

- أرى أنك تلبسين قفازا، هل تشعرين بالبرد لهذه الدرجة..

رددت بقلق:

- أجل، أجل أشعر بقليلٍ من البرد..

قال مازحاً:

- هذا غريب على الرغم من أن فصول الشتاء شديدة البرودة لم تأت بعد احذري مازالت هذه البداية..

قلت:

- أعلم هذا لكني هكذا أشعر بالبرد بسرعة، ربما أكون من ذوات الدم البارد..

ليظن أني كنت أبادله المزاح لتعتليه ضحكة مسموعة بعض الشيء، استمر في الحديث قليلاً وبعد أن ودعناه وخرج أخيراً أقبلت عمتي بابتسامتها وهي تقول:

- ما رأيك، أعتقد أنه يختلف عن سابقيه..

حاولت تجاهل كلامها والتظاهر بعدم سماعي لها على أمل أن تتوقف، حاولت أن أمسك لساني عن الكلام اخترت الصمت بدلاً من الدخول معها في نقاش أعرف نهايته، لكنها لم تتوقف فوجهت بعض الكلام الذي من المفترض أنها حفظته:

- أنت تعلمين أني لن أقبل بأي من هؤلاء ولا أي أحد منهم سيقبل بشخص غير كامل مثلي..

قلت تلك الكلمات وأنا أرمي بقُفاز يدي اليسرى على الأرض كاشفة عن الفراغ القابع في آخر يدي، لترد عمتي:

- لا سيقبلون لأنــــ....

قاطعتها قائلة بغضب:

- أعلم أن كل ما ستقولينه الآن كذب لذا لا تكمليه، ما داموا سيقبلون لم تجبريني على لبس هذا القفاز في كل مرة، كل هذا خداع، أنت لم تتقبليني بعيبي هذا فكيف سيفعلون هم ذلك..

ثم خلعت القفاز الآخر ورميته أرضاً وأنا أقول:

- ا نظري ماذا فعلت، جعلتني أظن أيضاً أن هذا شيء يمكنه أن يُعكر شخصيتي ويجعلني أشعر بالنقص، كم أكرهُك حقاً..

طأطأتُ رأسي للأرض لشعوري بالأسى على ما وصلت له، صمتت قليلاً ثم رفعت رأسي لها مرة أخرى لأكمل بلا مُبالاة:

- غادري منزلي الآن ولا تعودي إلا لزيارتي لا لأسباب أخرى، وهذا بالطبع إذا تمكنتِ من الشعور بأنكِ تريدي رؤيتي بالفعل لتطمأني علي..

قلت كلماتي تلك وهي تأخذ أدراجها مُتجهة للباب تبعتها وانتظرت خروجها لأضرب الباب من خلفها مقفلةً إياه، ثم عدت لغرفتي حيث صديقاتي ينتظرنني ليحاولا مواساتي أو التخفيف من عصبيتي لكن قبل أن يتفوها بأي كلمه رددت بسرعة وشيء من اللامبالاة مانعة للأسئلة بأن تخرج من جوفهما:

- ليس لدي الثقة بنفسي والشجاعة الكاملة التي تجعلني أقدم على خطوة كهذه لذلك لن أوافق كالعادة..

وحتى لا يشعرا بالأسى على حالي قلت:

- لا أنكر أنني أشعر بقليل من الحزن لكن أعتقد أن جهاد لديها الحل لذلك..

لتقول جهاد بحماس:

- إ نها البيتزا بالطبع ويليها لوح كبير من الشوكلاتة لتُذهِب وتذيب هذا الحزن..

قلت لها بسعادة:

- دائماً تعرفين ما أريد..

ثم تعالت ضحكاتنا بعدها لتغطي جدران الغرفة التي لم يملأها سوى الفرحة يومها.

(تحت الماء)

(٧)

خطونا أولى الخطوات دخولنا للنفق تبعتها بضع الخطوات الأخرى حتى أصبحنا لا نرى شيء. قالت أسيل:

- أنا لا أرى شيء، هل أنا فقط من لا ترى، كيف سنصل لنهاية هذا الطريق..

قلت:

- لا تقلقي أسيل فلنبقى بمقربة من بعضنا البعض فقط الآن ونواصل السير وسنصل بالتأكيد..

طمأنت أسيل بتلك الكلمات التي لا تنفع في أن تطمئنني حتى، اقتربنا أكثر حتى شعرنا بتلامس أيدينا، وكان النفق يقوم بدوره يجرنا لنمشي في مسارٍ واحد، المكان مُظلم، نسير بدون دليل الآن حتى تغير هذا، بدأ المكان بالتغير تدريجياً وأصبح كل شيء أكثر وضوحاً، أصبحنا الآن نمشي تحت..... تحت الماء، لكن دون أن تتبلل ملابسنا نرى بكل وضوح سطح البحر من فوقنا والغيوم المنتشرة على رقعة السماء ونمشي بين أعشاب البحر كيف هذا أليس من المفترض أن أعماق البحر تكون مظلمة فكيف يبدو لنا كل شيء بهذا الوضوح أم أن هذا تصوير للبحر وليس بحقيقة، كيف لنا أن نسير بكل هذه الراحة

تحت الماء دون استخدام أنابيب أكسجين أو أي شيء يُساعدنا على التنفس، كانت أشكالنا وهيئتنا، شعرَنا، ملابسنا، كل شيء يدل أننا نسير على اليابسة لكن الواقع وما نراه أننا تحت الماء. كان الأمر غاية في الروعة كأننا نرى إحدى أحلامنا ولكن هذه المرة نحن نعيشها حقاً، كتلك الصور ومقاطع الفيديو العابرة عن أعماق البحار نحن الآن نعيشها نحن الآن هنا حقاً في إحدى تلك الصور، لا يمكنني وصفه لكن كان المكان جميلاً لدرجة تجعل عيني تُخالف طبيعتها وترفض أن تغلق حتى تتمكن من التنعم بهذا المنظر لأطول فترة ممكنة.

- كم تمنيت أن تكون كاميراتي معي لأوثق هذه اللحظة، لأني أعتقد أن لا أحد قد يصدقني لو أخبرته بما نعيشه الآن..

كانت أسيل على حق، لكن هل تقدم لنا اللعبة مكافأة الآن أم أن هذه فقط واجهةً مُجَمله لما هو أعظم وأبشع.

تبدلت معالم البحر لتظهر أمامنا كل ما يدعو للرهبة والفزع اللذان أخذا موقعهما بين ضلوعي، ظلام يسود الأعماق، كائنات تتحرك في كل مكان أجهل ماهيتها، ضباب وأتربة متطايرة ومنتشرة في كل مكان التي قامت بدورها بمنع الرؤية تماماً.

كنت أعلم أن تلك اللحظات الجميلة لن تدوم وستنتهي كان من المستحيل أن تبقى لكنني لم أتوقع انتهائها بهذه السرعة، كل ما شعرت به أنه كانت هناك قوى تدفعني ربما كانت المياه وربما أتربة ولكن تلك القوى أسكنتني الآن داخل دوامة لست أقصد بالمعنى المعنوي لا أقصد أنني في دوامة حقيقة كالتي نسمع عنها ونراها على التلفاز لكن المخيف أنني أسكن فيها وحدي، أين جهاد وأسيل أعتقد

أن كلاهما تسكن في دوامة مثلي الآن، وبعد مدة لا تتجاوز العشرون دقيقة تقريباً قذفت بي تلك الدوامة إلى الأرض لأبدأ بتجميع تركيزي وأحاول التخلص من الدوار المصاحب لي الآن إثر تلك الدوامة لأجدني قد ألقيت أمام باب تحيطه أعشاب البحر من جميع الاتجاهات ولم يكن من حولي أي شيء آخر تقدمت لفتحه وكانت المفاجأة تنتظرني في الداخل:

- جهاد، أسيل، أنتما هنا... أين كنتما قبل قليل..

بنبرة استهزائية:

- ظننت أني لن أراكما مره أخرى..

لم أسمع منهما رد فأكملت كلامي:

- هل تعلمان لا أعلم ماهية اللعبة هذه المرة أو حتى الآن على الأقل لكن كنت أتخيل مشهد أكثر تشويقاً أو واقعياً من هذا فلماذا دوامة بالتحديد في وسط البحر لو أرادوا منا الدخول لهذه الغرفة..

جُبتُ بنظري قليلاً في أرجاء الغرفة ثم أكملت:

- التي يبدو أن ليس لها جدران أو سقف، فكان من

الممكن أن تلحق بنا سمكة قرش كبيرة أو ربما حوت لا أعلم، ونحن نركض أمامها حتى تقُودنا أقدامنا لهذا الباب كان سيبدو هذا أكثر تلاؤما مع المكان..

لم تَرد أياً منهما لم يكن هذا المتوقع على الأقل توقعت الكثير من الثرثرة تخرَج من أسيل لم يكن هذا المعتاد:

- هل أتيتما بدوامة أيضاً مثلي..

صمت.........

- لماذا لا تجيبان علي..

كنت على وشك صفعهما على وجههما بقوة لولا خروج تلك الشهقة العالية التي تخرج من الغريق بعد إنقاذه تبعتها زفره دالة على رجوع الحياة نظرت لعينيهما لأجد بريق الحياة قد عاد لهما من جديد سألتهما:

- هل تسمعاني..

لم يجيبا لكن هزتا رأسهما بالإيجاب، تأكدتُ رجوعهما لوعيهما أخيراً لأطرح سؤالي عليهما مره أخرى:

- كيف أتيتما إلى هنا..

ليتلفظا بنفس الكلمة في نفس الوقت بنبرة مجهدة مبحوحة:

- دوامة..

كان يبدو عليهما الإرهاق الشديد لكن بعد دقائق عادت جهاد لطبيعتها كأنها كانت تحت تأثير مخدر ما، قلت لها وأنا ألوح بيدي أمام عينيها يميناً ويساراً:

- جهاد هل أنتِ بخير؟ جهاد... هل تسمعيني؟

لم أنتظرها كثيراً هذه المرة حتى سمعتها تقول:

- أجل بخير وأسمعك جيداً لكن توقفي عن تحريك يدك أمامي هكذا أنتِ تصيبيني بالدوار..

- حسناً، حسناً، توقفت..

بدأت تضيق مقلتيها لتحجب رؤيتها عن حركة يدي وهي تبتسم فشعرت بشيء من الطمأنينة توقفت عن تحريك يدي وأنا أبادلها ذات الابتسامة. انتظرنا قرابة الساعة والربع حتى تمكنت أسيل من استعادة وعيها بالكامل هي الأخرى، تيقنا من هذا بعد سماعنا لتلك السعلات المتتالية الخارجة من فيهِا وتلك الكلمات القليلة:

- أين نحن الآن؟؟

لم تجب جهاد، ولم أجب أنا أيضاً فلا أعرف أين نحن حقاً، ساد الصمت لبضع دقائق ثم قلت:

- يبدو أننا على أشراف مغامرة لا مثيل لها..

حاولت أن أقول أي شيء حتى لا يكون الصمت رفيقاً لنا، ردت أسيل بسرعة يتخلل في ثنيات صوتها اليأس:

- لا أريد مغامرات، لقد اكتفيت حقاً، ألا يمكنني أن أعود لمنزلي وفي حال أردت استكمال تلك التجربة فيمكنني أن أعود في وقتٍ آخر..

يبدو بأنني نجحت في إبعاد الصمت عنا، لكن يبدو أن اليأس وجد راحته بيننا فقرر أن يحل مكان الصمت، لتُكمل جهاد من بعدها:

- لا تتأملي كثيراً فلا يظهر لي إلا أن هذه الأرض قامت باحتجازنا داخلها..

قامت جهاد من مكانها وبدأت بالدوران حولنا كأنها تفكر في شيء أو ربما لا تفكر في شيء، ربما أرادت أن تمنح نفسها بعض الهدوء بحركاتها

تلك، قلت بعدما تنهدت:

- حسناً، أولاً، توقفي جهاد قليلاً فقد أصبت بالدوار من حركتك تلك..

توقفت ثم خطت بضع خطوات لتعود وتجلس مكانها بيننا، ابتسمت لها:

- هذا جيد، وثانياً، دعونا نلقي بكل هذا جانباً وحاولا أن تجمعا عقليكما وتفكرا معي جيداً في كيف يمكننا الخروج من هنا، فكما قلتِ يا جهاد فيبدو أننا محتجزات هنا، لذا دعونا نفكر كيف نخلص أنفسنا بدل أن نشتت تفكيرنا في اللاشيء..

اعتدلت من جلستي متجهة للباب وفور وضعي ليدي

على مقبض الباب حتى اختفى تماماً لا أقصد الباب بالطبع بل مقبضه ليصبح الباب لوحاً أملساً تماماً دون وجود أي بروز على سطحه لأسمع جهاد من خلفي تقول:

- أهلاً بكم في المرحلة التالية..

التفت أليها لأرى أنها كانت تتحدث وهي فاتحة ذراعيها كأنها في إحدى الاستعراضات العالمية، مع ابتسامة تعتلي وجهها.

****

بعد تأكدنا من عدم استطاعتنا بأن نفتح الباب وأنه لا يمثل لنا الآن وسيلة للخروج من هنا الذي اختفى بعدها ببضع دقائق لينفي أي أمل قد يتولد لدينا متعلق به. بدأ نا بالسير سوياً حتى ارتطمت جهاد التي كانت تتقدمنا ببضع سنتيمترات بشيء لا نراه لتصدر أنين خفيف

نتج من شعورها بالألم، نظرت لنا وهي تقول:

- لا أعلم ماذا حدث هل تريان شيء..

هززنا رؤوسنا نافين لكلامها ثم أكملت مازحة:

- يبدو أن هناك جدار خفي هنا..

قلت لها:

- لاحظت هذا..

ثم تقدمت عنهما لأتفهم مما يحدث جاعلةً من يدي

تسبقني بقليل حتى ارتطمت هي الأخرى بشيء لا أراه تحسسته بيدي ببطء فشعرت بأنه سطح أملس لا يعيبه ندبه أو حفر ولا يحتوي على أي نتوءات، أكملت بتحسس المكان من أمامنا لبضعة أمتار من على يميني ثم عدت ثانية لهما وقلت:

- يبدو أن جهاد كانت محقة فيما قالت، نحن محاطون بجدار لا نعرف نهايته لو لم يختفي ذلك الباب لتمكنا من الاسترشاد به الآن..

صمت قليلاً ثم أكملت:

- فلنتفرق ونتحسس هذا الجدار لنعلم إلى أين سيوصلنا..

انحنيت على ركبتي اليمنى وخلعت ربطة شعري وغرزتها في الأرض باستخدام إحدى الأحجار المُلقى على امتداد الأرض وأكملت:

- وسيكون هذا هو دليلنا لنعود إليه ونجتمع عنده بعد أن نجد نهاية لهذا الجدار أو لا نجد أي شيء حينها سنجلس لنفكر فيما سيحدث وماذا سنفعل بعد هذا..

قالت جهاد:

- حسنا كيف سنسير الآن نحن ثلاثة ونملك اتجاهين..

ساد الصمت قليلاً حتى بدأت أسيل بالحديث مخاطبة لي:

- ستذهب جهاد معك لربما شعرت بأي إنهاك نتيجة فقدك للدماء وعدم تلقيك للغذاء الجيد أما أنا سأسير بمفردي..

ردت جهاد بتحدي:

- بل سأذهب بمفري، أستطيع تدبر أموري وحدي بعكسكما فأنا الأسرع والأقوى كما تعلمان..

قالت أسيل بإصرار:

- لذلك قلت أن تذهبي معها لتتمكني من رعايتها، لا تقلقا علي سأكون بخير، ولا أعتقد أن المكان سيكون غاية في الاتساع الذي لا يمكننا توقعه..

ارتسمت على وجوهنا علامات دالة على موافقتنا لكلامها ثم قالت جهاد:

- يجب أن نحسب مساحة المكان الذي يحيطنا وستكون هذه غايتنا من السير في اتجاهات وسنعتمد على أقدامنا في ذلك فهذه هي وحدة القياس التي نم تلكها الآن إلى أن نلتقي مجدداً..

وقفنا ننظر للأسيل للحظات ثم ربتت على أكتافنا وهي تقول:

- أثق أننا سنتمكن من الالتقاء معاً بسرعة..

ثم ودعتنا بابتسامة شابها القلق واتجه كُلٌ إلى طريقه، سارت أسيل

متخذة من الجهةِ اليمنى طريقاً لها وذهبتُ

مع جهاد في الجهة المعاكسة.

****

بدأت بالسير مع جهاد بخطوات متباطئة بعض الشيء لنتمكن من حصر مساحة المكان وجاعلة من يدي لا تفارق ذلك الجدار الغير مرئي لأعيننا. بدأت سرعتنا في التزايد شيئاً فشيء دون أن نجعل المسافة تزيد عن الخطوة إلى أن ارتطمتُ بحائطِ آخر أمامي جعلني هذا أرجع بضع خطوات للخلف ويدي سارعت مباشرة في تحسس مكان الضربة في مقدمة رأسي، اقتربت جهاد وهي تنظر لي وتقول:

- هل أنت بخير..

وبدأت تتفحص رأسي ثم أكملت:

- لا تقلقي حسب تشخيصي لا تبدو أنها خطيرة، لن تفقدي حياتك الآن..

سمعت ما قالت فارتسمت على وجهي ابتسامه تبعتها ضحكة جهاد ثم تعالت صوت ضحكاتنا قليلاً، أكملنا بعدها سيرنا بعد أن مزقت جهاد قطعة من قميصها ووضعتها وثبتتها بإحدى الأحجار الملقى على الأرض، لتجعل منها ملتصقة في زاوية الجدار الذي يبدو عليها أنها انحرفت قليلاً عن كونها قائمة ، صادفتنا ثلاث زوايا أخرى تشبه الأولى ولازلنا نكمل السير حتى لمحت جهاد شبح شخصٍ يمشي من بعيد لم تكن ملامحهُ واضحة وبدأت الرؤية تتضح كلما اقتربنا منه حتى هتفت جهاد:

- إنها أسيل..

تسارعت خطوات أسيل أيضاً بعدما لوحنا لها بأيدينا وفور وصولها سألتها في عجل:

- وصولك بهذه السرعة لا يعني إلا أن الغرفة صغيرة..

أكملت أسيل:

- نعم، ولم أجد أي غرابة في المكان لا شيء سواء الحائط الخفي وزاويتان وبعض الصخور على الأرض..

فتحت جهاد ذراعيها ثم سألت بتأفف:

- وماذا الآن.. هل نعود حيث كنا أم ماذا..

- لا أجد في هذا ضرورة، فالمكان بأكمله يشبه بعضه نحن محتجزون في هذه ال غرفة، أرى أنه من الأفضل أن نسير في أرجاءها علّنا نجدُ شيئاً..

****

أثناء ما كنا نسير تعثرتُ بشيءٍ أسفل قدمي، دنوت منه لأرى ما هو، وجدتها قلادة معلق فيها حِلية من تلك التي تشبه الكتاب التي يمكنك الاحتفاظ في صورة داخلها، فتحتها وإذ بها تحتوي على صورة لطفل، سحبت مني جهاد بفضولها المعهود القلادة في لحظه سريعاً لمعرفة ما فيها فقلت لها:

- لا يوجد بها شيء يدعو للدهشة، إنها مجرد قلادة تحتوي صورةً لطفل غريب الشكل..

أسماء زاد

لم تجبني وأبقت عينها على الصورة تتفحصها بتركيز شديد ثم قالت وهي لم تحرك عينها بعد من على الصورة:

- أعتقد أن ما قلته كان خاطئ، يبدو أن هذه الصورة لا تشبه الطفل أبداً..

ثم مدت يدها لنا لترينا الصورة مرةً أخرى وهي تقول:

- أعتقد أنها أشبه بحشرة أكثر من وجه الطفل، أنظرا جيداً..

التقطها من يدها وصببت عيني عليها وبعدما أمعنت النظر في الصورة مره أخرى جيداً وجدت أن جهاد على حق، لكن كيف رأيتها في المرة الأولى كوجه طفل هذا غريب ككل شيء نعيشه هنا.

خرجت أسيل من صمتها لتقول لنا:

- فلتتركا هذا الهراء جانباً لن نستزيد شيئاً إن كان طفلاً أو حشرة، ودعونا نكمل طريقنا، لا أعتقد أن هذه القلادة قد تفيدنا في شيء، ألقوا بها في مكانها ولنلتفت لما هو أهم من هذا..

فور أن ألقيتُ تلك القلادة شع منها ضوء يمكن ملاحظته بسهولة، كان وميض لم يدم أكثر من بضع ثواني، ثم تفرقت من تحت القلادة ثلاث فرق من الحشرات وقد كانت تشبه صورة تلك الحشرة على القلادة الملقاة على الأرض، ذهبت كل مجموعة في اتجاهات مختلفة بحيث أن لا تلتقيا أبداً.

- ما هذا؟؟

سألت أسيل باشمئزاز وتقزز من المنظر الذي ولدته الحشرات أمامنا،

لطالما كانت دائماً تخافُ من الحشرات، ثم أردفت جهاد وهي تضحك:

- يبدو أن هذه القلادة لن تفيدنا فعلاً..

قالتها جهاد باستهزاء يبدو بأنها لم تتمكن من أن تفوت فرصة كهذه، اعتدنا على مزاحها هذا، بادلتهما بابتسامة تصحبها صمت وبقيت عيناي تُراقب تلك الحشرات لعدة دقائق وأظنهما بدأتا المراقبة معي منذ قليل في حين أن أسيل لم تطل النظر كثيراً وقررت أن تُشيح ببصرها لوجوهنا بدلاً من أن تلتقي عينها مع صورة لحشرة هذا كان أفضل بكثير لها، لكن تلك الكائنات مازالت تستمر في السير على نفس الطريق مع ازدياد أعدادها، تحدثت لهما وعيناي لا تزالان منغمستان في النظر لهذا السرب البادي أمامنا:

- هذه الحشرات لم تنتهي بعد ويبدو أنها لن تنتهي وستسمر في التزايد أكثر مع كل دقيقة..

لا أنكر أنه كان يعتليني شعور بالتقزز قليلاً لكن لا بد أن هذا السرب يحمل وراءه تفسير،

- حسناً، يبدو أن هذه هي بداية اللعبة، لكن ما الذي علينا أن نفهمه من هذا؟؟

يبدو أن صوت أسيل لم تفارقه نبرة الاشمئزاز بعد، ربما زادت عليها أيضاً قليلاً من الخوف، قُلت لها:

- لا أعلم ما معنى هذا، لكن يبدو أنه لن يكون بالشيء السهل الذي سنتمكن من فهمه بسرعة، لذا أعتقد أننا سننتظر هنا ونبدأ بالتفكير قليلاً..

جلستُ أنا وجهاد متجاورتين وكانت القلادة أمامنا، تبعد بضع سـ نتيمترات لا أكثر، كنا قريبتين منها جداً، أما أسيل فقد اختارت أن تجلس خلفنا بقليل.

****

كانت تلك الحشرات تختلف بنية جسدها في كل مجموعة ويختلف لونها أيضاً. المجموعة الأولى التي تتجه نحو الشمال، كانت أكثر مجموعة ملونه بألوانٍ مختلفة وجميلة من بين البقية، كانت مزخرفة بصورة مبالغ فيها لأن تكون شكل حشرة، ولم تكن تسير في سرب منتظم وفي خط مستقيم بل كانت تسير في شكل منحنيات كأنها تتمايل. أما المجموعة المـ تجهة شرقاً كان يظهر عليها أنها ذات بنية أقوى، كأنها كانت تلعب رياضة ما لتبني تلك العضلات التي تكسوا جسدها ، كان هذا السرب الأكثر انتظاماً عن البقية وتسير في خط مستقيم ومنتظم وسرعتها تزيد بعض الشيء، يبدو أنها مدربة أكثر عن هاتين الجماعتين. أما المجموعة الأخيرة التي كانت تتجه نحو جهة الغرب كانت بطيئة الحركة ويظهر بوضوح المسافة التي تفصل بين كل حشرةٍ والأخرى، بالإضافة إلى أن تلك المسافات لم تكن متساوية تصغُـر أحياناً وتكون كبيرة أحياناً أخرى، قلت بصوتٍ شبه مسموع وأنا أُحدق في هذا السرب:

- هذا السرب يبدو عليه التشتت..

سألت جهاد:

- ماذا قلتي..

قلت:

- هذه المجموعات لا تشبه بعضها، لا أقصد أنها أنواع مختلفة، هي نفس الحشرة مع اختلاف بسيط في الشكل الخارجي لكن كل سرب يتبع نظام محدد، ويظهر هذا على طريقة مشيها وبنية جسدها، أُنظرا..

كنت أشير بيدي ثم أكملت:

- مثلاً، هذه الأكثر انتظاماً بينهم وهذا يظهر بوضوح من مشيتها كأنها مدربة على ما تفعل، تشبه الجيش في ترتيبهم..

- أنت محقة..

قالتها أسيل بعدما تخلصت من خوفها قليلاً وبدأت تنظر لهم في دهشة. قلت لهما:

- ماذا سنفعل الآن؟؟

ردت جهاد:

- فلتختر كل واحدة منا مسار تمشي فيه حتى تصل لنهايته ربما يكون الحل في نهاية أحدهم..

سألتُ باستنكار:

- هل ستذهب كل واحدة في اتجاه مختلف..

قالت أسيل في عجل:

- لم لا نذهب معاً مهما كانت النتيجة، أياً كانت النهاية..

لحظات من التفكير انتهت باختيار فكرة أسيل أ نذهب معاً مهما حدث لكن كانت الحيرة أي طريق سنسلك. قررنا أخيراً أن نسلك المتجهة نحو الشرق، حيث المجموعة الأكثر نظاماً بينهم كانت تذهب، هذا كان الأكثر منطقية من بين كل الخيارات، فالذهاب لمجهولِ منظم أفضل بكثير من الذهاب لمجهولِ مبعثر.

****

ها نحن نتبع الحشرات، كنا نمشي ثلاثتنا بجانب بعضنا على يمين السرب وكلما تقدمنا كانت الغرفة تضيق شيئاً فشيء وتزداد ظلمتها، حتى أصبحنا نسير خلف بعضنا من ضيق الممر، إلا أن وصلنا أخيراً لبابٍ كبير نُقش في وسطه شكل الحشرة بالإضافة لنقوشِ تشبه أوراق الشجر تتفرع من نقش الحشرة، كان النقش دقيقاً حيث كانت كل الأوراق تتطابق تماماً. الباب مصبوغٌ باللون البني أكثر الألوان التي أمقتها. سرب الحشرات مازال يكمل سيره مُتخذاً من فتحة الباب السفلية طريقاً له لدخول الغرفة. كانت جهاد هي من تتقدمنا دارت برأسها لتنظر لنا كأنها تسألنا بنظراتها:

- هل نكمل أم نرجع أدراجنا ونختار طريقاً آخر نسلكه..

كانت الحيرة تملأ عينيها، أومأت لها بعيني بأن نعم سنُكمل ما بدأنا، التفت مرة أخرى لتواجه الباب ثم وضعت يدها على مقبضه النحاسي ثم فتحه بتأنِ، صوتُ تكه..... صرير الباب..... ضوءَ ساطع.....

لحظات أخرى من الصمت بعد انخفاض الضوء وتبين ما بداخل الغرفة..... صمتٌ أطول من هول ما رأينا، وقفنا على مدخل الباب دون حراك.

الحشرات تحتشد في وسط الغرفة وتلتف حول شيء..... حول جثة.....

****

سرب الحشرات يواصل سيره في نفس الطريق كأن الحشرات التي تكتفي من لحم وأحشاء ذلك الملقى على الأرض تكمل طريقها بنفس النظام، أصبحت الجثة بدون معالم تميزه، أشرتُ لجهاد وأسيل بالبقاء مكانهما إلى حين عودتي. قمت بتتبع بقية السرب حتى وصلت لبوابة أكبر من تلك التي دخلنا منها إلى هنا، كانت تشبهها في كل شيء، في اللون، في التصميم، حتى أنها تحوي نفس المنحوتات على سطحها، فيما عدا ذلك الاختلاف البسيط، حفرة كبيرة تتوسط جسد الحشرة المحفورة في منتصف الباب، تحسست الباب على أمل أن أجد أي مقبض أو أي شيء أتمكن من إمساكه أو يساعدنا في الخروج من هنا. قلت بعد تنهيدة اعتلتها يأس:

- لا شيء..

تتبعت السرب لأعود لمكان الجثة، وعندما وصلت كان التفاؤل يملأ عينا أسيل وجهاد،

- لا تتأملا عبثاً، لم أجد سوى باب كذلك الذي دخلنا منها ولكنه لا يحتوي على أي مقابض أو فتحات، لم أجد سوى حفرة كبيرة تشبه النصف كرة تتوسط جسد الحشرة..

هتفت جهاد في حماس:

- هذا هو الحل سنجد ما يناسب تلك الحفرة لنملئ مكانها حتى يفتح الباب هذا يبدو سهلاً..

قالت أسيل:

- يبدو هذا منطقياً لكني لم أر أي صخور أو أشكال تشبه ما تقولينه، أرض هذه الغرفة ملساء للغاية لو كنا نعلم لحملنا بعض الصخور قبل دخولنا للغرفة..

لحظات من التفكير ثم التفَتُ بسرعة ناظرةً للجثة التي تُشاركنا الغرفة، لفت انتباههم ما فعلت، عُدت بنظري لهما كان يبدو أنهما فهمتا ما أقصد، قالت أسيل وهي ترجع بظهرها خطوات للخلف:

- لا تفكري في هذا أرجوك لن نلمس تلك الجثة العفنة ولا تلك الحشرات المقززة..

قُلت لها:

- ها أنتِ قُلتِ ها بنفسكِ هذه الأرض ملساء إذاً الحل يكمن في تلك الجثة أو الحشرات ولن نعرف هذا إلا إذا اقتربنا أكثر منهما..

وقف ثلاثتنا دون حراك ولو بقينا على هذا الحال سنبقى هنا إلى الأبد، لذا لملمت ما تبقي لدي من شجاعة وذهبت بخطوات متثاقلة مُتجهةً للجثة، أظن في نهاية هذه اللعبة إما سأصبح باهتةً وضعيفة أو أن كثرة المواقف الصعبة ستمنحني القوة. بعدما مشيت بضع خطوات سمعت خطواتهما من خلفي، حسناً يبدو هذا جيداً، على الأقل لن أذهب وحدي.

كلما اقتربنا كانت الرائحة العفنة تزداد أكثر حتى توقفت ومن شدة الرائحة ظننت أنني سأستنشق تلك الرائحة بدلاً عن الأكسجين، الرائحة التي كان مصدرُها جِثة الراقد على بُعد خطواتٍ أمامنا.

كانت الحشرات تكتظُ على صدر الجثة، مددتُ يدي اليمنى لأزيح الحشرات من على صدره وسددت أنفي باليد الأخرى لحجب قليلاً من الرائحة، يدي كانت ترتجف وأكاد أجزم أيضاً أني كُنت أسمع اصطكاك أسناني ببعضها البعض، لا أعلم من أين أتيت بهذه الشجاعة لكن فور ما أحست أصابعي بملمس الحشرات حتى تلاشت هذه الشجاعة، أبعدت يدي بسرعة وأنا أنفضُها ورجعت خطوات للخلف ثم نظرتُ لصديقتي وقلت مع ابتسامة بلهاء:

- لم لا تحاول إحداكما أن تفعل أي شيء، قد حاولت مرة هيا حاولا لا تأخُذا دور المتفرج..

قالت جهاد:

- أنتِ صاحبةُ الفكرة أنا سأدعمك من مكاني هذا..

ثم هتفت أسيل من بعدها وهي ترفع يدها:

- وأنا أقبل بأخذ دور المتفرج..

كنت أحاول التملص من هذه الخطوة بتلك الكلمات لكني لم أنجح في هذا، تنهدت ثم أقدمت على المحاولة مرة أخرى وكنت أردد:

- سأنجح، أتمكن من فعلها..

مددت يدي لكن هناك يد سبقتني وكانت تُزيح الحشرات بسرعة، رفعت عيني وإذا بها جهاد، ابتسمت لها لكنها لم ترفع عينها ثم قاطعتني قبل أن أنبث بأي كلمة:

- هيا أسرعي فنحن لا نمتلك متسعاً من الوقت..

أكملت بعدما رفعت رأسها تنظر لي ويدها لا تزال تعمل:

- إضافة على ذلك ليس من العدل أن تقومي بهذا وحدك، لذا قررت أن أتولى مهمة إزاحة الحشرات لكن سأترك لكي مهمة البحث على ما نريد في الداخل لذا حاولي أن تسرعي في البحث قبل أن تتجمهر الحشرات عليك..

اعتدلت من جلستها ثم أكملت:

- هيا لا أريد لمس تلك المخلوقات مرة أخرى..

شكرتها ثم عدت بنظري للجثة، لا ملامح لها، كان الوجه لازال يكسوه اللحم لكن بعض الحشرات قد أخذت من الرأس منزلاً لها، همست لنفسي:

- حسناً، لا غاية ستخرج من هنا..

كان الجسد مشوه بالكامل، شق في منتصف الصدر بداية من أسفل حنجرته وصولاً ببطنه، تنهيده أخرى ثم مددت يدي، بدأت يدي تغوص في أحشاء الجثة، كان ملمسها لزجاً ومقزز، كنت أُحركُ يدي يِمنةً ويساراً لا أعلم عن ماذا كنت أبحث لكن يجب أن يكون شيئاً صلباً على حد علمي، توقفت يدي للحظات ثم سحبتها بسرعة صرخت وأنا أزحف بجسدي للوراء، تقدمت مني جهاد وأسيل بسرعة وهن يهتفن:

- ماذا؟؟ ما الذي حدث؟؟

نظرت ليدي كانت الدماء تقطر منها:

- ما الذي أفعله؟؟

كنت أردد وأحرك رأسي محاولة لإنكار ما كنت أفعل، هتفت صديقتاي مرة أخرى:

- ما الذي حدث؟؟

قلت بعدما نظرت لهما وقد تجمعت الدموع في عيناي وصدري يرتفع ويهبط بسرعة:

- قلبه.. قلبه..

قالت جهاد:

- ما به؟؟

- لا يزال ينبض..

- لا يعقل ربما هُيأ لكِ، ألا ترين حالته يستحيل هذا..

صرختُ بها:

- حتى وهو على حالته هذه هل يحق لنا أن نفعل به ما

نفعله الآن لمجرد حالته تلك..

- اهدأي أماتا لم أقصد هذا ثم نحن لم نكن نحن من أوصلهُ لتلك الحالة..

قطعت أسيل جدالنا ونصحتنا بالجلوس حتى نهدأ، استمعنا لها، جلستُ لبضع دقائق على الأرض حتى هدأتُ قليلاً استشعرت يد أسيل تُربت على كتفي ثم قالت:

- جهاد لم تقصد ما قالته، لكننا مجبرين على فعل أي شيء للخروج من هنا، نحن لا نعلم ماذا حل به وما الذي أوصله لهذه الحال، لكن انظري له جيداً... هل تريدي أن نلقى مصيره..

نظرت له و هززت رأسي نافيةً، ثم أكملت:

- حسناً لو لم نحاول البحث عن مفتاح الخروج فحتماً سنصل لحاله وربما يكون هذا قريباً..

قمت دون أن أرد بكلمة، توجهت للجثة وقد احتشدت الحشرات عليها مرة أخرى أزحت القليل منها وسمحت ليدي بالتسلل داخله للمرة الثانية... لحظة...

- قلبه لا يتحرك، لم هُيأ لي عكس هذا..

قلتها لنفسي ثم أغمضت عيني فلا أريد أن تلتقي عيني بالجثة، لازالت يدي تتحرك حتى ارتطمت بشيء صلب، قلت محدثةً لنفسي:

- كما توقعت، صلبة..

أمسكتها وأخرجتها رويداً، وقفت ورميت بها أرضاً ثم قلت وعلامات البرود تكتسي وجهي:

- أعتقد أن هذا ما كنا نبحث عنه..

مزقت أسيل طرف فستانها الأبيض المزركش بالورود واقتربت مني وبدأت تمسح آثار الدماء عن يدي ثم قالت:

- لا تلومي نفسك أبداً، سيكون كل شيء بخير..

ثم ارتسمت بسمة لطيفة على وجهها وبعدها رأيتها وهي تنحني من

الكرة وتحملها من على الأرض وبدأت تسبقنا في المشي وهي تخاطبنا:

- هيا أسرعا لنخرج من هنا..

من أين لأسيل هذه الشجاعة كيف لها أن تحمل كرةً ملطخة بالدماء، كف تحملها وهي تعلم أ نها خرجت حديثاً من جثة، تبعناها وهي تتبع سرب الحشرات ولم تكن تزيح عينها عنهم كما كانت تفعل في بادئ الأمر، لم تغيرت أسيل..... هل تخلصت من خوفها..... لم لا تصرخ..... لم لا تُمسك الكرة بتقزز على الأقل إنها تمسك بها جيداً وتضمها لصدرها، نظرتُ لجهاد أسألها:

- ماذا حدث لأسيل؟؟

- لا أعلم حقاً، لم هذا التغيير المفاجئ، لكن سنعلم انتظري حتى نخرَج من هنا أولاً..

****

ها نحن نقف أمام الباب أخيراً، كان كل ما أتمناه الآن أن يكون ما توصلنا له هو الحل وأن تُناسب الكرة الفجوة.

وقفت أسيل على أطراف أصابعها ورفعت يدها التي تحمل الكرة لتتمكن من الوصول للفجوة..... وضعت الكرة..... عادت لوقفتها..... رجعت للوراء تقف بيننا، كنا ننتظر على أمل حدوث أي شيء حتى سألت جهاد بيأس:

- لم لم يحدث شيء؟؟

رددتُ:

- انتظري قليلاً..

فجأة صدر صوتٌ عالٍ كصوت صافرات الإنذار والكرة في المنُتصف، كانت تتحرك بسرعة ثم شع ضوء حجب الرؤية تماماً، أغمضتُ عيني وبعد لحظات بدأتُ بفتحها ببطء، كان الضوء يقلُ شيئاً فشيء حتى تلاشى وأصبحت الرؤية أكثر وضوحاً، أسيل وجهاد تعتليهما الدهشة التي أشعر بها والتي كان معناها،

- أين الباب!!

اختفى كل شيء، الباب..... الحشرات..... لكن لم نزال تحت الماء، صوت ضحكات صادرة من جهاد تبعتها:

- هذه اللعبة لم تنته بعد..

أسماء زاد

(٨)

نمشي ولا نسمع إلا صوت خطواتنا حتى سألتُ أسيل بعدما تذكرت ما فعلته في نهاية اللعبة:

- لم تغيرت فجأة في النهاية؟؟ كيف تخليت عن خوفك؟؟

- لم أتخلَ عنه قط كان قلبي يرتجف..

قالتها وهي تضحك لذا أكملت:

- إذاً ما الذي حدث؟؟

- لم يحدث أي شيء أردت المساعدة فقط وأردت أيضاً أن..

صمتت ثم أكملت بعدما ترددت قليلاً:

- أردت فقط أن تتذكراني بصورة أفضل، صورة تبعد عن الضعف وخوفي الدائم..

- نحن نحبك كما أنت لا حاجة لك بالتغيير، ثم أنني أرى أن اختلافنا هذا هو من جمعنا..

أكملت جهاد على كلامي بنبرة هادئة بعدما أسندت ذراعها على كتف أسيل:

- صورتك رائعة كما هي لذا لا تحاولي تغييرها، أنت الأفضل دائماً كما أنت..

- لكن لم قلت حتى تتذكراني، إلى أين قررت الرحيل، أم أنك قررت

الزواج أخيراً..

كنت أمازحها حتى تبتسم لكنها ردت بتوتر كأنها لم تتوقع سؤالي:

- لا إلى أي مكان، أنا هنا... أنا هنا معكما إلى أين سأذهب..

****

لا شيء أمامنا سوى الصخور المنتشرة في كل مكان، كانت تعيق الحركة قليلاً كنت على وشك تحذيرهما لتنتبه كل واحدة لخطواتها لكن أسيل تعثرت وسقطت ليطرق رأسها بعدها بصخرة كانت مُلقاة أمامنا لترقد أسيل على الأرض دون حراك اقتربنا منها ونادينا عليها عدة مرات متتالية بصوت مرتفع لكن دون جدوى لنجد أنها فاقدة للوعي. ساد بعدها الظلام على المكان فجأة دون إنذارٍ مسبق لهذا، أصبح المكان عكس ما كان عليه قبل بضعة ثواني ثم ظهرت إضاءة خافتة في الأرجاء لأرى البحر الذي كنا نمشي فيه قد تحول لشارع على اليابسة، لحظة......... لقد رأيت هذا الشارع من قبل، حِمت بنظري قليلاً في أرجاء الأرض القابعين عليها فوجدتُ أنها نفس تلك القرية التي قضينا فيها ليلتنا الأولى في هذه اللعبة، كانت ليلة البارحة، قُطعت تلك اللحظات على إثر صرخة جهاد

بقلق:

- رأس أسيل ينزف بشدة، ماذا سنفعل الآن..

بقيت صامتة قليلاً لأجمع شتات أفكاري ثم هممت بسرعة بفك تلك القماشة الملتفة حول معصمها ووضعتها على الجرح في رأسها وضغطت بيدي جيداً حتى أمنع تدفق الدماء قليلاً، بعدها قلت:

- والآن ساعديني في حملها لإحدى تلك البيوت..

حملنا أسيل واتجهنا لإحدى البيوت وهذه المرة فتحنا بابها دون إذن وقد كان البيت من الداخل لم يختلف عن الذي أقمنا فيه سابقاً باستثناء تلك الستائر البيضاء الممتدة من سقيفة البيت وصولاً لأرضيتها والتي بدأت في التمايل بفعل الهواء الداخل من الباب بعد فتحنا له، وتلك السلالم العشر التي استقبلتنا، عبرنا من الباب ثم قامت جهاد بدفعه بقدمها غاية في غلقه صعدنا تلك الدرجات بسرعة ثم تقدمنا بخطوات متسارعة نحو تلك الوسائد المُتراصة في جميع الأرجاء لنجد الفارق الثالث ينتظرنا هناك، بالطبع لم أقصد تلك الستائر البيضاء أو السلالم، بل كان شخصاً يقف في مقربة من الاستراحة المتجهين لها كان ينظر لنا كأنه كان ينتظر حضورنا، كأنه على علمٍ سابق بقدومنا، حيث أنه لم يسمح لنا بسؤاله أي أسئلة من التي دارت في عقلينا لحظتها وبادر مباشرة بمخاطبتنا:

- ضعوها هنا على هذه الأريكة ولتذهب إحداكما في

جلب بعض الأعشاب من على جانب الجبل الشمالي فالأعشاب هناك ليست سامة..

بدأ يصف أشكال الأعشاب التي يريدها لكني لم أتمكن من حفظ ما يقول كل وصفٍ يصفه كان يشبه الآخر، ذات أوراق رفيعة أو ربما عريضة، ثم يصف الرائحة كيف لي أن أميز رائحة عُشبه أو هل لي بتمييز أي شيء الآن وأسيل على هذه الحال، مازال يتحدث ظهر علي الاستياء من كلامه فخاطبته باستياء:

- أرجوك توقف قليلاً سنفعل كل ما تريد..

تقدمنا ووضعناها حيث أمرنا في المكان المشار إليه ثم اقتربت من جهاد وقلت لها بصوت خافت:

- انتظري أنت بجوارها فنحن لا نعلم من يكون هذا وهل بإمكاننا الوثوق به وفي كلامه أم لا ولكن لا نملك خياراً آخر، لا تتركي أسيل مهما حدث وأنا سأذهب لإحضار تلك الأعشاب التي أخبرنا عنها..

أنهيت كلامي ولم أنتظر منها الرد وأسرعت بالخروج من البيت متجهة للمكان الذي دلني عليه ذلك الغريب، لكن قبل خروجي سمعته يهتف لي:

- لا تنسي الجبل الشمالي..

****

وصلت أخيراً للمكان المراد وبدأتُ باقتلاع بعض من

تلك الأعشاب المختلفة أشكالها، على الرغم من أن ذلك الغريب قد وصف لي أشكال الأعشاب التي يريدها إلا أنني لم أكترث لما قال وحاولت أن اقتلع من كل الأنواع الموجودة وجمع كميات كبيرة منها لضمان عدم عودتي مرة أخرى لكي لا نخسر المزيد من الوقت. أتيت مسرعة لأضع كل ما في حوزتي من أعشاب أمام الغريب ليبدأ باختيار البعض منها دون أن يرفع رأسه أو ينبث بكلمه، ثم شرع في طحن الأعشاب وهو يقول:

- لا تنظرا لي هكذا، لا تقلقا أنا طبيب..

هذه المرة لم أتمكن من أن أعيره انتباهي فقد كان مصبوباً الآن بالكامل على أسيل، ها هو الآن يتقدم من أسيل ليضع ذلك المسحوق

في يده على جرحها لكن جهاد أبت الابتعاد من أماه حتى ألححت عليها بأن تفسح له المجال فربما كان هذا أملنا الوحيد وأننا لا نريد تضيعة المزيد من الوقت، تحركت جهاد من أمامه ليبدأ بإزالة القماشة الموضوعة أعلى الجرح ثم وضع ما يكفي لتغطية الجرح من مطحون الأعشاب بيده ثم أخرج قماشة جديدة بيضاء اللون وضمد بها الجرح جيداً، عند انتهائه ا عتدل في وقفته ناظراً إلينا ثم أردف:

- ضمدت جُرِحها فلا تفكروا في فك الضمادة وسيتبين كل شيء في الصباح أو حين استيقاظها..

قال تلك الكلمات وأسرع بالخروج كأنه لم يكن في انتظار أي أسئلة ستخرج منا، يبدو أنه يظن أن ما قاله كان كافياً لسد جوع أسئلتنا وما كنا نريد قوله، كم هذا سخيف.

****

سحبت جهاد وسادتان ورمت بهما على الأرض، جلسنا عليهما مسندين ظهورنا للأريكة التي ترقد عليها أسيل، لم نتفوه بكلمة، بقينا في صمتِ مُرعب نترقب حدوث أي شيء يعطينا القليل من الأمل، حتى جهاد لم تتفوه بكلمة جائعة، يبدو أنها تخلت عن رغبتها في تناول أي شيء رغم معرفتي القوية بعدم تمكنها من تحمل كل هذه الفترة دون طعام، مازلنا في صمت حتى شعرت بحركة من خلفي كانت قد سبقتني جهاد قائلة:

- أفاقت، أسيل أفاقت أخيراً إنها تتحرك، انظري..

نظرت لأسيل وقلت لجهاد وأنا مبتسمة:

- نعم رأيت هذا..

فتحت أخيراً أسيل زرقاوتيها اللامعتين، نَظرت بتمعن لنا وكان يعتلي وجهها الأبيض ابتسامة لنا، لكنها لم تكن عادية، كانت ابتسامة حزينة وبدأت الدموع تحتشد في عينيها ثم قالت لنا:

- أحبكما..

تبدلت ملامح وجهي حينها كأني علمت حينها أنها لحظة النهاية..... لحظة الوداع..... أو ربما هو مجرد شعور غبي، أتمنى أن يكون كذلك، لكني وقتها رفعت رأسي للأعلى ناظرة بعيني للأعلى وأنا أعض على شفتي في محاولة مني في منع دموعي من مغادرة مُقلتاي..... في محاولة لتمالك نفسي، حتى أكملت أسيل بذلك الصوت المختنق:

- هل تعلمان أكثر ما يؤلمني الآن، أني أعلم مدى الحزن الذي سأخلفه من ورائي بعد مغادرتي لكما..

لم تقل الكثير ثم أغمضت زرقاوتيها اللامعتين، رقدت أسيل هناك فوق ذلك السرير المتحجر كجثة هامدة، لا هي حقاً كانت جثة حينها وكان ذلك إثر تلك الإصابة التي لم أفهم لم هي بتلك الخطورة لو كان طفلاً يلعب مع أصدقائه في الأزقة ووقع كما حدث مع أسيل لانتفض بعدها من الأرض يكمل ركضه ولعبه مع رفقته.

****

صرير بابٍ، التفتنا لباب المنزل، كان يفتح في رويده، سوادٌ حالك، عباءة سوداء، إنها العجوز مرةً أخرى. همست جهاد في أذني:

- لم أعُد أطيق هذه العجوز، لا أفهم حقاً ما غايتها من كل هذا، ولم

دائماً هذا التوقيت..

حقاً لم لا تظهر إلا في النها ية، حسناً لم أكن لأتوقع من هذا الوجه الكثير من البهجة، لكن هذا كئيب أكثر من المتوقع. تقدمت العجوز بخطوات بطيئة حتى استقرت أمامنا ثم قررت أن تفتح فمها المشؤوم:

- يبدو أن الخسائر كانت كبيرة هذه المرة..

قالتها وهي تنظر لأسيل..... أقصد جثتها، ثم أكملت:

- إن الصغيرة نائمة بعمق و إلى الأبد، كم هذا محزنٌ للغاية..

قالت العجوز هذا ولكن هذه المرة وهي تمشي بيدها اليسرى على خصلات شعر أسيل البني، كانت تلمسها بخفة، وهي تكمل:

- انظروا إلى هذه الصغيرة النائمة إنها تبدو أكثر جمالاً وعيناها مغلقتين، صحيح؟؟

وبدأت تعلو ضحكتها حتى صرخت جهاد وهي تدفع يد العجوز مبعدةً إياها بعيداً عن أسيل:

- توقفي عن هذا، وأبعدي يدك القذرة هذه عن أسيل، إياكِ ولمسها مرة أخرى..

كانت الدموع تسيل من مقلتي جهاد بغزارة، صوتها متقطع من كثرة الحزن والبكاء، كان رد فعل العجوز بارداً كعادتها، استقرت يدها المشؤومة تلك على جانب جسدها والابتسامة مازالت تعتلي وجهها، وجهت بعض الكلمات لنا وهي تقترب أكثر:

- انتظرَ لمعرفة ما الخسارة القادمة..

قالت تلك الكلمات..... أدارت ظهرها لنا..... فتحت باب المنزل ثم خرجت على الفور، لكن هذه المرة لم نلقِ لها بالاً ولم نحاول اللحاق بها حتى، نظرتُ لجهاد التي كان وجهها مازال يمطر ثم عُدت بنظري لتلك الجميلة الراقدة في هدوء

صمت.........

****

قررت ترك أسيل لبعض الوقت، واتجهت مع جهاد لاستنشاق بعض الهواء في الخارج، لكن فور خروجنا من الباب باءت محاولتي السابقة في الصمود بالفشل لأترك المجال في النهاية لدموعي بالجريان أخيراً، حتى السماء، لم تتمكن من تمالك نفسها تلك الليلة فلم تتوقف هي الأخرى عن البكاء ليلتها معبرة عن مدى حزنها، كانت أصعب الليالي علي أنا وجهاد حتى السماء وبلت كأن قطرات المطر الخفيفة كانت تداعب وجنتي..... كأن السماء تحاول أن تخفف وتزيح عني قليلاً من هذا الحزن.

اعتلانا الصمت لبضعة دقائق أو ربما كانت ساعات لا أعلم كأن الوقت توقف حينها عن السير، لتقول جهاد:

- ماذا سنفعل الآن؟؟

لننظر لبعضنا البعض على أمل في أن تقدم إحدانا على اتخاذ قرار... أو التصرف... أي شيء، في محاولة لفهم الخطوة التالية، لكننا لم نفعل أي شيء ا كتفينا فقط بالدخول مجدداً للبيت حيث ترقد أسيل، تمددنا على الأرائك الأخرى بجانبها لكي لا نفارقها للحظة واحدة، لتنتهي بنا تلك الليلة مستلقيتين بجوارها، وتنتهي في منزل بالي وموحش غُلقت فيه ستُ مُقل.

(ذكريات)

(٩)

نحن الآن في قسم الإسعاف بعدما سقطت أسيل ونحن نمشي بجانب شاطئ البحر ليرتطم رأسها بذلك الحجر الملقى على الأرض، أسرعنا في نقلها للمستشفى بعدما عجزنا عن إيقاظها، بدأ الطبيب في تضميد جرحها وتركنا لبعض الوقت بعد أن غرز تلك الإبرة في ذراعها وسحب بعضاً من دمها.

أفاقت أسيل وهي ممدة الآن على سرير المستشفى وسط ضحكاتنا في انتظار ظهور نتائج تحاليلها لنتمكن من الخروج من هذا الوسط الكئيب، لكننا لم نكن نعلم أن الأسوأ في انتظارنا، كان وقع تلك الكلمات من فم الطبيب على مسامعنا وقعاً يصيب الذعر أو ربما الدهشة وهو يصارحنا بما أصاب أسيل قائلاً:

- آنسة أسيل، أنا آسف، أنت مصابة بورمٍ دماغي..

صرخت جهاد:

- هذا ليس صحيحاً، أسيل بخير، أعد تلك النتائج لصاحبها..

نظرتُ لأسيل حيث أن علامات وجهها لم تتبدل، لم تصبها أي دهشة، انتظرت في ترقب ما ستقول حتى تلفظت بكلماتها أخيراً:

- أعلمُ بهذا..

ماذا قالت؟؟ كانت تعلم بمرضها، لكن لما لم تخبرنا من قبل عن هذا، بعدها سمعتُ الطبيب يكمل:

- هل كنت تتابعين مع طبيب آخر؟ وهل خضعتِ لأي علاج..

ردت أسيل:

- نعم كنت أتابع مع طبيب في مستشفى آخر لكني توقفت عن الذهاب وقررت عدم إكمال علاجي منذ سنةٍ تقريباً..

قال متعجباً:

- إنها لمعجزة حقاً بقاؤك صامدة إلى الآن..

لتقول جهاد وقد ظهر القلق في كلامها:

- لكنك ستتمكن من معالجتها صحيح؟؟

أحنى رأسه ناظراً لتلك الوريقات في يديه وقال:

- أنا آسف حقاً، لكن ما يبدو أمامي أن الورم في مرحلته الثالثة وحسب ما رأيته فحالتها متأخرة ويتبين استحالة تخطيها لهذا المرض..

قاطعته:

- فلنكمل حديثنا في الخارج..

أمسكت أسيل بيدي وقالت للطبيب:

- لا، يمكنك أن تكمل هنا، أنا أعلم حالتي جيداً..

أكمل بناءَ على طلب أسيل:

- لا يمكننا الاتجاه لاستئصال الورم بجراحة بسبب موقع الورم وأن

جسد الآنسة أسيل لا يمكنه تحمل عملية كهذه، ولو اتجهنا للعلاج الكي..

قاطعته أسيل:

- كم تبقي لي؟؟

نظر لها بأسى ثم قال:

- آسف لما سأقوله، لكن حسب حالتك ما هي إلا بضعة أشهر أو سنة في أفضل الحالات..

ثم قال بيأس قبل أن يغادرنا:

- أعتذر حقاً لما سمعتموه، لن أتمكن من مساعدتها..

تبادلنا نظراتٍ كانت تحمل معانٍ كثيرة وسط الكثير من الصمت، حاولت أن أخرج أي كلمة حتى قُلت متسائلة:

- لم يا أسيل..

لم تجب لكنها قفزت من سريرها علينا تحتضننا كما كانت تفعل دائماً، واكتفينا فقط بتلك الدموع المُنسالة من أعيننا.

****

كانت أسيل في الخامسة والعشرين من عمرها حينما علمنا بمرضها، لتودعنا ونحن على أشراف أن تنتهي السنة الثالثة من يوم تلقينا لذلك الخبر المشؤوم، من شدة مرضها هزل جسدها وشحب وجهها في تلك السنوات الثلاثة حتى زرقاويتها انطفأت لمعتهما. لم نتقابل أنا وجهاد بعدها كثيراً وأصبحت كل واحدة منا منعزلة بين جدران

منزلها.

كانت من أسوء الفترات التي مررت بها تلك التي تركت نفسي لمشاعر الفراغ تلك المشاعر التي لا يملؤها شيء مهما فعلت ومهما حاولت بقيت مسيطرة علي كنت أحاول شغل وقتي بأي شيء كغسل تلك الصحون التي غسلتها للمرة الرابعة على التوالي، أو محاولة مسح الحائط من بقع لا وجود لها من الأساس، كانت كلها أشياء لا معنى لها لكن أفضل من أن أترك نفسي لنفسي عند زاوية الغرفة لتلقي باللوم علي، لتشعرني بأنني كنت السبب في موتها بتقصيري. أنام فترات قصيرة فالنوم لم يكن ملجأي لأتخلص من لوم نفسي، قد كانت الأحلام تطاردني كأنها تأبى أن تشعرني باختلاف عن ما أعيش وأمر به على أرض الواقع. كيف لي أن أصف ذلك الشعور الحبيس داخلي، لكنني أعتقد أنه أقرب بأن يأتيك الجاثوم بعد ليلة طويلة من البكاء تحت غطاءك لتستيقظ وأنت تسمع من حولك ولكنك لا تستطيع نداءهم لإنقاذك ولا تنسى أيضاً بالإضافة لهذا تلك الأنفاس التي تشعر بأنها مقطوعة، هذا ما كنت أشعر به لكن الفارق الوحيد أنني كنت أمنع نفسي من البكاء في كل مرة أردت فيها ذلك ثم ينتهي بي الأمر نائمة وأصحو بعدها بعينين لا تزالان مغلقتين ثم أبدأ بالتحسس حولي بيدي بحثاً عن هاتفي..... وجدته أخيراً..... أفتح نصف عين وأتصفح بها بعض الصفحات والمواقع كالعادة إلى أن يتبدد هذا الشعور بالكسـ لـ..... في الحقيقة هو لم يذهب أبداً، كنت أخرج من هذا ليستقبلني شعورٌ باليأس، كم تبدو حياتي في غاية الروعة.

مضت سنة كاملة بشكلٍ روتيني للغاية لا أذكر فيها ما يدعو للدهشة والانبهار، قضيتها بين جدران منزلي لم أكن أرى الشارع إلا وأنا ذاهبة

لتبضع بعض قوت يومي من البقالة التي تبعد شارعين عن منزلي وذلك بعد أن انتقل (آدم) العامل على توصيل الطلبات للبيوت في ذلك الدكان الصغير لمدينة أخرى وذلك لحصوله على عمل بأجر أكبر مما كان يحصل عليه في هذه البقالة.

وأذكر أيضاً الطرقات العديدة على باب شقتي التي كان مصدرها جهاد بكل تأ كيد، لم أكن أفتح ذلك الباب لم أرد الاختلاط بالعالم الخارجي حينها، لا أعلم ماذا يجب أن أقول لها لذا حاولت عزل نفسي في المنزل فقط حتى باتت تلك الطرقات في الابتعاد حتى تلاشت تماماً في الثلاث شهور الأخيرة، اعتقدت أنها ظنت

أنني قد غادرت هذا المنزل.

وها هي ذكرى وفاة أسيل تقبل علي، شرعت بارتداء ثيابي السوداء متجهة للمقبرة. اتجهت لقبرين متجاورين كانا لوالدي كنت آتي لهما باستمرار لكن بدأت تلك الزيارات في التلاشي شيئاً فشيء إلى أن باتت معدومة.

- أعلم أنني لم آتي لكما منذ فترة طويلة، أعلم أنكما بخير فلم ولن أتوقف عن الدعاء لكما أبداً لكن اليوم عدت يا أمي... عدت يا أبي، لكن هذه المرة لأوصيكما فصديقتي أصبحت تقييم معكما منذ فترة فلتعتنوا بها جيداً، هي وحيدة الآن لكن أصبح في دعائي مكان إضافي لها لذا لا تحسداها على هذا. لم أنسكما أبداً فنحن لا نتذكر الموتى بذهابنا لقبورهم فلو لم يكن هذا المفقود أهلاً لنتذكره فلا ضرورة لذهابنا لقبره والجلوس أمام شاهده، لقد كنتما معي دوماً وكنت أطيل النظر لكما في تلك الصورة التي وجدتها في بيت عمتي وأصررت

على أن أبقيها معي، وضعتها بجانب سرير لأراكما عندما أستيقظ في كل صباح. لم يكن لي معكما ذكريات كثيرة لذا على الأقل كنت أحاول أن أكتفي بالنظر للصورة حتى لا أنسى هيئتكما..

ودعت والداي وجررت قدماي مُتجهة لأسيل لأجد جهاد جالسة عند قبرها رأيتها من بعيد يبدو أنها لم تنسى ذكراها أيضاً، لقد مرت سنة كاملة على عدم لقاءنا لذا فكرت في التراجع والعودة لأسيل لاحقاً وبدأت أخذ أدراجي للعودة لكن سمعت من يناديني:

- هل هذه أنت أماتا!!

أتى ذلك الصوت من خلفي نعم أعرف هذا الصوت جيداً، إنها جهاد التفتت إليها ناظرة لعينيها ليسود على المكان الصمت من جديد، ثم بادرتُ:

- كم اشتقت إليك، ما كان يجب علي الرحيل، ما كان يجب علي تجاهلك كل تلك الفترة..

لتحتضنني بشوق مقاطعة كلامي حينها تركت العنان لعيني بأن تعبر عما تبقى من مشاعر لم أستطع شرحها والبوح بها، لأسمع همسها في أذني وهي تقول:

- اشتقت لك كثيراً يا ذات القلب الرقيق..

****

قد أوقفتني تلك الحادثة كنت لا أتمكن من التفكير، أصبحت كمن لا مأوى له أو كأن أحداً أمسك بي وضرب بي حائط حجري لأقف بعدها دون أن أفهم ماذا حدث وما الذي يجب علي فعله. كانت تلك أولى

الخسائر التي شعرت بوطأتها على قلبي كانت أرجاء جسدي تعمها الفوضى لم أتمكن من تلميم أشتات نفسي شعرت بكل شيء هذه المرة بعكس فقداني لوالدي وأنا طفلة لا تفقه ما تكون حتى. لكنني أفقت اليوم بعد رؤيتي لجهاد لأدرك أنه مهما طال الليل سيطلع نور الصباح على الرغم من عدم اختلاف كلاهما بالنسبة لي لكني كنت أجد حقاً في الصباح شيئاً من البهجة الخفية في تفاصيله، يبدو أنا تلك هي طاقة النهار التي كنت أسمع عنها من قبل، هذا ما شعرت به عند رؤيتي لجهاد، يبدو أن الطاقة التي كانت تنقصني اكتملت برؤيتي لجهاد.

(نبش القبور)

(١٠)

جسرٌ خشبي يحيط به من على كل جهة أربع أنياب كبيرة الحجم وطويلة تشبه عاج الفيل، عبرنا من أعلى الجسر وكان يجري من تحتنا ماءٌ صافٍ تماماً لا يشوبه شائبة، عبرنا بسلام وبعد وصولنا للضفة الأخرى لمَ يكن هناك ما يدعو للدهشة، نظرتُ للسماء فرأيتُ أطراف الليل بدأت تدنوا منا فظننا أننا سنبحث عن مكان للمبيت فيه كما حدث معنا في نهاية اللعبة الأولى، أكملنا طريقنا وبدأنا بالسير في طريقٍ مجهول وفجأة شعرنا بأقدامنا تغوص في بقع طينية رغم عدم إشارة أي شيء في الأرجاء على أنها أمطرت، أو على ظهور أي علامات لهطول الأمطار من فترة قريبة، كان ينبعث من المكان رائحة تشاؤميه تملأه وتتخلل في جميع الأركان، شعرنا وقتها أن الموت يحيطنا من كافة الاتجاهات ربما كانت تلك الرائحة هي رائحة الموت، أو ربما هذا ما شعرت به، ولكني أعتقد ذلك حيث أن طاقة المكان كانت أشبه بتلك التي شعرت بها بعد فراق أسيل لنا، ربما كانت هي تلك رائحة الموت حقاً التي تغطي المكان بأكمله حتى كادت أن تغلق مجاري الهواء.

نبثتُ بصوتٍ خافت بعدما وقعت عيني على شيء من بعيد:

- أمورفوفالس تيتانيوم..

سألت جهاد بعدم فهم:

- ماذا قلتِ؟؟

- أذكر أني حكيتُ لكي من قبل عن زهرةٍ غريبة قرأتُ عنها ألا تذكرين، إنها نفس هذه الزهرة، زهرة الجثة..

- لا أذكر تماماً، لكن ما الفائدة المرجوة منها؟؟

- لا أعلم، لكنها لن تظهر بلا سبب محدد وهذا ما أجهله الآن، لكن هذه الزهرة تبدو مزهرة الآن وهذا يوحي أننا صادفنا أيام تفتحها..

قلتها وأنا أشير لها باتجاه الزهرة وأمشي نحوها لأقترب منها أكثر ثم تبعتني جهاد وهي تقول:

- وماذا في هذا؟؟

- هذا حدث نادر للغاية، أنتِ الآن تشهدين تفتح زهرة لا تزهر إلا يومين كل مئة عام..

قالت بدهشة:

- مئة عام!! هذا مستحيل..

توقفنا على بُعد خطوات من الزهرة التي كانت تجتذب الذباب برائحتها التي تشبه كثيراً رائحة اللحم العفن، قلت بعدما انحنيت أتلمس الأرض من تحتنا:

- لكن الغريب أنها تنمو في غير أرضها على ما أذكر هي لا تنمو إلا في غابات ولا أظن أن تربة هذا المكان تصلح لأن تعيش فيها... هذا قد

يُعرضها للهلاك..

- الرائحة التي تملأ المكان يبدو أنها تصدر منها ألا تشتمينها..

- أشتمها بوضوح، لكن الرائحة المحيطة بنا لها مصدرٌ آخر ليست وحدها الزهرة هي المتسبب في هذا، ربما هي غلاف لما هو أعظم منها..

- لا يهم من أين تصدر لكن الرائحة ستقتلني هيا بنا نتحرك من أمامها..

لحقت بجهاد بعدما تأملتها لبضع ثواني على حالها فكيف تمكنت من النمو في أرضِ لا تناسبها. غيرنا طريقنا مبتعدات عنها

****

توهج ضوءٌ من بعيد كان ينبعث من خلف شجرة تبعد عنا بثلاث أمتار تقريباً، كانت شجرة يسهل تفرقتها عن باقي الأشجار من كبر حجمها وهيئتها المختلفة وذلك لخلوها من أي ورقه تُضفي الدفء على أي غصن من أغصانها الذين تفرقوا وكأن لكل غصن طريق يمشي فيه وحيداً ليصبحوا كجماعة تمردوا فاستنكروا واستثقلوا حتى من النظر لبعضهم البعض. وكان هناك فأس وجاروف يستندان عليها.

اقتربنا من الشجرة فقد كانت غايتنا الحصول على الفأس المستند عليها للحصول على وسيلة دفاع في حال حدوث أي شيء لكن ما وجدناه عليها كان تخيله أثقل على العقل من وزن هذا الفأس.

وجدنا على الشجرة حَفر كان أقرب للحقيقة من كونه مجرد منحوتة على جذع شجرة، كانت المنحوتة تُصور التشريح الكامل لجسد بشري

وطوله يفوقنا ببضع سنتيمترات وهناك بعض التجويفات الموزعة في أنحاء جسده، هناك تجويف في الرأس في فكه بالتحديد مكانٌ لسنٍ أمامي، وتجويف آخر في اليد اليمنى لعظام كف اليد كاملة، وجزء آخر مجوف لعظمتين من القفص الصدري الأيسر، وآخرها كانت لعظام الساق اليَسرى أيضاً، يبدو الحفر دقيقاً للغاية.

- أتمنى أن لا تكون هذه هي خارطتنا الجديدة لهذه اللعبة..

قالتها جهاد وعينها لم تفارق المنحوتة،

- تمني شيئاً آخر فيبدو أننا بدأنا اللعب بالفعل..

- ماذا تقصدين؟؟

أشرت بيدي لمكانٍ لم يكن بالبعيد لمحت ضوءَ يصدر منه، ثم قلت:

- هذا ما أقصده..

(١١)

مشينا في تؤده نتتبع الضوء الذي جعلنا نرى تفاصيل المكان بقبوره الموحشة المنتشرة في أماكن متفرقة، وأشجاره عارية الأوراق والنحيلة المنتشرة في كافة الأرجاء، شعرت من تلك اللمحة والإضاءة الخافتة التي كان دليلنا الوحيد أن المكان لم يكن مخصص لأن يكون مقبرة بل أرض يُخبأ فيه القتلة ضحاياهم.

أكملنا الطريق حتى وصلنا لمصدر الضوء وجدنا أنه كان ينبعث من قبرٍ لا يغطيه التراب ولا يحوي شواهد، لم يوضع عليه أي شيء سوى لوح خشبي يغطي سطحه بالكامل. اقتربنا أكثر فخرج من القبر رائحة كريهة تكاد تخنقنا من بشاعتها نتج عنها خروج سعلات متتالية دون توقف من أجوافنا فشرعنا بتغطية أنوفنا بقمصاننا لنحجب قليلاً من تلك الرائحة ونسعى لمعرفة الغاية من هذا الآن قبل أن نختنق وننفى من الوجود من مفعول هذه الرائحة.

****

لحظات من الصمت، نقف مكممين الأنوف، مقطبين الحاجبين، لا شيء لم نفعل أي شيء حتى قالت جهاد وسط هذا الصمت:

- هيا سنحاول رفع هذا اللوح الخشبي معاً..

- بهذه السرعة..

- لو لم نتحرك الآن سنبقى هنا وندفن في هذا المكان..

حاولنا جاهدين رفعها حتى نجحنا في النهاية أخيراً على الرغم من

ثقل وزنها. تمكنا من رفعها قليلاً ولكن سرعان ما خرجت مني صرخة تُسمع البلاد المجاورة، ربما سمعها أولئك الراقدين تحت التراب من قوتها، وفوراً تركت أناملي تلك الخشبة لأرمي بكل الحمل على عاتق جهاد، هتفت جهاد بفزع ويدها لم تفارق اللوح بعد:

- ماذا هناك؟؟ ماذا حدث؟؟ إ ن الخشبة ثقيلة جداً ستفلت من بين يدي في أي لحظة، امسكيها بسرعة..

استمعت لكلام جهاد وقمت بإمساكها مجدداً بسرعة، ثم أكملت جهاد قائلة:

- لا تُفلتيها مرة أخرى وإلا فقد تخلع يدي في المرة القادمة، هذه ليست خشبة عادية لا أعلم مما صنعت حتى تكون بهذا الثقل..

أجبتها:

- حسناً سأحاول..

ثم أكملت:

- حاولي أن لا تفلت من بين يديك قبل أن نوقفها على

الأقل ونجعلها تستقر دون حراك هناك..

ثم أشارت برأسها إلى جهة يسارها، هززت رأسي لها مشيرة بأن حسناً، بعد أن بدأننا برفعها رويداً سألتني جهاد مرةً أخرى:

- حسناً، أخبريني ماذا حدث ونحن نرفعها حتى صرخت بهذا الشكل..

رددت بهمس وتردد كأني لا أريد لأحد بأن يسمعنا، كأنه يوجد غيرنا

هنا:

- توجد جثة..... رأيتها..... هنا ترقد تحت هذا اللوح..... أي أننا قريبتان من جثة..... تحت أقدامنا..... قريبة جداً..

لم تخرج الكلمات من جوفي مرتبة فلم أكن في وضع يسمح لي بتركيب جملة صحيحة، سكوت جهاد دل على تصديقها لكلامي لكن مع ذلك سألت السؤال المتوقع:

- هل تتكلمين بجدية؟؟ أرجوك لا وقت للمزاح في أشياء كهذه..

أكملت همسي:

- الجثة قريبة... إنها هنا.. رأيتها بكامل حِلتها كأنه لم يتحلل من جسدها شيء.. . كل شيء كان يبدو واضحاً وحقيقياً للغاية من نظرتي الأولى لها..

شعرت بانتفاضة قد سرت في جسد جهاد، فقد تبدل وجهها لوجه آخر لا يعود لها، وأصبح وجهها مُصفراً يبدو أن الدماء قد تبددت منه.

****

بعد رفعنا للوح نظرنا مطولاً للجثة التي كانت تعود لامرأة تبتسم لكن الغريب أن ابتسامتها تفتقد شيئاً، قالت جهاد:

- لم لم تفقد كل شيء، كل شيء على حاله فيما عدا أسنانها..

نعم كان هذا ما ينقص في ابتسامتها، اقتربت منها أتفحصها وأدقق النظر فيها وأنا جاثيةً عل رُكبتي ثم اعتدلت من جلستي تلك

ووقفت أحادث جهاد:

- لقد فهمت الآن ما تقصده تلك المنحوتة... لو أمعنتِ النظر جيداً سترين أنها لم تفقد كل أسنانها كما قلتِ قبل قليل، هناك سنٌ أمامي كُسر مقدمته فقط ولهذا لم نتمكن من رؤيته جيداً في بادئ الأمر..

اقتربت جهاد وهي تحدق أكثر في فكها ثم رجعت للوراء وهي تقول:

- نعم رأيته، لكن ماذا في هذا؟؟

- الآن يبدو كل شيء أكثر وضوحاً، ففي المنحوتة رأيت أنها تحوي حفر في أماكن متفرقة على الجسد البشري المنحوت على الشجرة، ولو حاولتِ التذكر سترين أن هذا السن الذي لا يزال معلقاً في فك الجثة يطابق تقريباً الحفر الموجود في المنحوتة وفي نفس مكان الحفر بالتحديد..

- هل هذا يعني أننا سنبحث عن كل الأجزاء المحفورة على منحوتة الشجرة..

- أتمنى أن لا يكون كذلك وأن تكتفي اللعبة بهذا السن..

صمتتُ قليلاً ثم أكملت:

- وبالمناسبة أنا لن ألمس ولو شعرةً من هذه الجثة..

- وكيف سنخرج السن!!

- حاولي أن تجدي حلاً يبعد كل البَعد عني يكفيني ما فعلته وما حدث معي في اللعبة السابقة..

- وكيف سنقتلعه..

أومأت بكتفي بأن لا علم لي. بحثنا في الأرجاء عن أي أداة تساعدنا فنحن لا نمتلك أي شيء سوى ذلك الفأس والجاروف اللذان استعرناهما من أمام شجرة المنحوتة ولا أظن أنهما يبدوان صالحين لإجراء عملية خلع سن لبشري كان على قيد الحياة.

****

صرخت أنادي على جهاد وأنا أمشي نحوها فقد ابتعدت عني قليلاً في عملية البحث هذه:

- لو بقينا على هذا الحال سنبحث طوال الليل ولن نجد أي شيء يعود بالنفع علينا..

وعندما وصلت لها وقفت أمامها وقلت بابتسامه تدفع الريبة في نفسها:

- لم لا تحاولي استخدام يدك..

أجابت باستنكار:

- بيدي... لم ... ثم إن هذا سيكون صعباً وقاسياً للغاية ناهيك عن كونها جثة..

- ها أنتِ قلتها إنها جثة، وهذا يعني بأنكِ لن تجدي صعوبة كبيرة في خلعه سيكون متراخياً كأنه ينتظر منكِ خلعه..

- وماذا بعد؟؟

- سنأخذه ونضعه في مكانه في الشجرة وننهي اللعبة، وأعلم أن فعل هذا ليس بسهولة قوله لكن لا حل لنا غيره..

أشاحت بوجهها للسماء وصمتت قليلاً تفكر فيما قلته، ثم عادت بنظرها لي وهي تقول:

- وماذا إن لم تنته اللعبة عند هذا وأرادت أن نكمل جميع النواقص في المنحوتة..

- لا تتشاءمي على الفور فكري بإيجابية وتمني أن تقبل بها لنخرج من هذا المكان الموحش ونعود لأرضنا..

- ولكن إن لم يحدث ما تقولين سيكون الدور القادم عليك..

هززت رأسي بالموافقة وأنا أقول في نفسي أرجو أن لا نصل لتلك المرحلة أبداً.

تقدمت جهاد وانحنت من الجثة تنظر جيداً أين ستضع يدها. مدت يدها اليمنى وعندما تأكدت أن يدها تسير في الاتجاه الصحيح أغلقت عيناها تحاول أن تتلاشى النظر لها خاصةً مع تلك العينين الجاحظتين. تساءلت في نفسي كيف لم تتحلل هذه العينين تبدو كأنها على قيد الحياة وتتمكن من رؤية ما حولها، كان سؤالاً عبثياً مع كل ما نراه من هراء على هذه الأرض، أبعدت الأفكار عن عقلي وأكملت متابعة حركة جهاد في انتظار أن يخرج هذا السن في يدها وتنتهي هذه المُعاناة بسرعة، مازالت تحاول وهي تردد بصوتٍ خافت أكادُ لا أسمعه بوضوح:

- لا يخرج... لا يخرج..

كم هذا متعب وممل لا أريد الانتظار بقية حياتي بجوار الجثة في انتظار سقوط سنها عادت الأفكار مجدداً لعقلي حتى قطعتها جهاد

بصراخها وصوتها الفرح:

- فعلتها... أماتا انظري... فعلتها أخيراً..

بادلتها بابتسامه ثم قلت:

- هذا جيد هيا لنسرع بالوصول للشجرة..

- لكن ألا يبدو هذا سهلاً للغاية، أهذا كل شيء، حتى المرحلة الأولى كانت أكثر صعوبة من هذه..

- قُلت لا تتشاءمي على الفور، ثم هذا لا يبدو سهلاً كما تقولين، لم خِيل لكِ أنه بهذه السهولة، فكرة أننا تعدينا على جثةً بلمسها فقط أمرَ ليس بهين فماذا يقال عن اقتلاعنا لجُزءٍ من داخلها، هذا ليس بالأمر الهين كما تظنين..

- أنتِ مُحقة في هذا..

أكملنا طريقنا في صمت حتى وصلنا للشجرة فقُلت:

- هل ستضعينها أم أفعلُها..

مدت يدها وهي تقول:

- نحن شُركاء في كل شيء..

تناولتها من يدها ووضعتها في المكان الذي من المفترض أنِ يكون مخصصاً لها، لحظات من الانتظار تبعها صمت حتى شع ضوءَ يُضِيء المنحوتة بأكملها للحظات ثم عادت كما كانت،

- سئمت من الأضواء التي تخرج بعد كل خطوةٍ ومرحلة نتخطاها..

قالتها جهاد بيأس بعد أن أحنت رأسها، انتظرنا قليلاً كنت في انتظار أن يشع ضوءَ آخر يفتح به باب ليخرجنا من هنا، أو تنشق الأرض من تحتنا فنسقطِ في بقعة أرض أخرى، أو أن تخرج لنا تلك العجوز لتُسمعنا بعضاً من كلماتها المسمومة وتضحك ضحكتها المخيفة تلك وتذهب كما أتت دون أن نشعر بها، أن يحدث أي شيء المهم أن يكون سريعاً، كانت تلك هي أمنيتي الوحيدة الآن أن نخرج من هنا بسرعة كما كنت أتمنى في كل مرة وفي كل مكان مررت به، لكنني كلما تخطيت مرحلة وجدت أنها كانت أفضل من التي تبعتها، لذا كنت أتمنى أيضاً أن تكون أفضل من سابقتها لكن هذا لم يحدث قط...

انتظار يتبعه انتظار آخر وسط أفكارٍ مبعثرة حتى لمحت ضوءَ آخر من بعيد فعلمت أن تلك هي وجهتنا القادمة. هززتُ جهاد لتُفيقَ من غفلتها وأشرتُ لها بأن نتجه لذلك الضوء البعيد.

****

سرنا نحو الضوء داعين الله بأن لا يكون صادراً من إحدى القبور وأن يكون هذا دليلٌ لطريق الخروج. تباطأت حركة أقدامنا كأنها تجر صخوراً خلفها بعد أن اقتربنا من مصدر الضوء، قُلت يائسةً لما نحن مقبلين عليه:

- قبر..

- ما توقعته حدث، إنها تريد منا أن نكمل المنحوتة دون أيةِ نواقص..

وصلنا لوجهتنا، وقفتُ أمام القبر أتأمله وقلت بصوت مبحوح بعد أن بدأت الدموع تغرق عيناي:

- هل تعلمين معنى ما تقولين؟؟ هل تعلمين كم القبور التي سنعبث بها حتى نكمل تلك المنحوتة السخيفة فقط؟؟ هذا خاطئ، ما سنفعله خطأٌ كبير، نحن لا نسير في الطريق الصحيح..

علا صوت جهاد وهي تخاطبني:

- هل يوجد أمامنا طريقٌ غيره.. . هل تملكين حلاً آخر أم أنكِ ترين شيئاً لا أراه..

- لا، لا أعلم لكن هذا لا يبدو صائباً..

أخفضت من صوتها وقالت وهي تُربت على كتفي:

- أعلم هذا لكن لا نملك خياراً آخر لذا سنفعل الآن ما نعرفه حتى نرى دليلاً أو إِشارةً تُغير وجهتنا..

لم أجب وتقدمت لرفع اللوح الخشبي فقد كان القبر يشبه سابقه لكن لا أظن أن الجثة الراقدة تحتهُ تشبه سابقتها. رأتني جهاد فتقدمت مني سريعاً لتساعدني في رفعه، تمكنا من رفعه أخيراً لكن هذه المرة لم أفزع من هيئة الجثة التي رأيت بأنها تبدو عاديةً للغاية، ربما اعتادت عيناي أو أني أصبحت لا أكترث لما سيحدث منذ اللحظة التي نويت فيها التخلي عن بعض خصالي الجيدة.

كانت الجثة هذه المرة تعود لرجلٍ، أسنانه كاملة لكنه لا يبتسم رأيتها بوضوح لأنها كانت تبرز من فكه لا غير، يغلق عينه براحة كأنه ينام على سريرٍ من حرير، لا يكسو رأسه أي شعر، يبدو ذو ملامح جيدة على كونه جثة، يده اليمنى تمتد باستقامة بجواره، أما اليسرى كان يضعها على صدره، لا يبدو على هذه الجثة أي غرابة، إذاً ما المطلوب

منا الآن. قالت جهاد مازحةً في محاولة منها لتشتيت الضغط الذي يملأ الأرجاء:

- أي جزء سنأخُذ هذهِ المرة..

رددت بغضب:

- أرجوك لا تتكلمي بهذه الطريقة، لسنا عصابة..

- حسناً، حسناً لا تنفعلي على الفور، لكني أتحدث الآن بجدية ماذا سنفعل..

بدأت أتفحص الجثة بعيني فلا أريد لمسها قبل تأكدي التام من المكان الذي سألمسه، لن أتحسس الجسد بأكمله لأجد ما نريد، لن ألمسه قبل أن أ تأكد أولاً، هذا ما كنت أفكر به، تساءلت جهاد:

- لم لم توضع يداه لتأخذ نفس الوضع، لم كل واحدة تأخذ وضعاً يختلف عن الأُخرى..

قلت مُحدثةٍ لنفسي:

- كلامها صحيح كم أنت ذكية..

حاولت ربط كلامها بشكل المنحوتة هل المقصود كف اليد أم ضلوع الصدر. لا أريد تمني أن تصادف أي خيار من الاثنين فكلاهما أكثر وحشي من الآخر عند التفكير في كيفية تنفيذهما، نظرتُ لجهاد وقلت:

- ارفعي أنتِ اليد اليمنى وانظري تحتها، حولها، وسأفعل نفس الشيء مع اليد الأُخرى علنا نجدُ شيء..

هزت رأسها بالموافقة وشرعت بفعل ما أمرتها به وبدأت أيضاً بفعل ذات الشيء لكني توقفت عن الحركة من بشاعة ما رأيت بعد رفعي لليد، سمعت جهاد تقول،

- لا شيء، لا يوجد ما يدعو للريبة..

قلت بصوتٍ لا أكاد اسمعه:

- ولن تجدي..

تساءلت بعد رفعها لرأسها تنظر لي عما كنت أقول فأجبت:

- كان يغطي صدره بيده، هذا سبب اختلاف وضعية اليدين..

نظرت جهاد موضع اليد اليَسرى فتحولت ملامح وجهها للذهول مما رأت، فبعد رفعي لليد وجدت أن جزءاً من صدره الذي كانت تغطيه اليد تحديداً لا يكسوه أي جلدٍ أو لحم، ظهرت ضلوعه بوضوح أو بمعنى أدق ظهر ضلعين فقط من قفصه الصدري،

قالت جهاد وقد بدا الارتباك على صوتها:

- إذاً هذا..

هززت رأسي بتردد أن نعم، تركتُ يده تهوي على التراب بجواره وجلست أتبادل النظرات مع جهاد، نظرات تحوي معانٍ كثيرة، ورافقنا الصمت أيضاً كثيراً في رحلتنا هذه، وبعد الكثير من الصمت قالت جهاد:

- لا نملك خياراً آخر..

قالتها كأنها تعلم جيداً ما أفكر به، قرأت ما أُريد من عيني كأنها

تعلم ما أريد قوله لها، لكنها محقة فيما تقول وأنا أيضاً محقة فيما أفكر أيضاً لكن لا نملكُ حلاً آخر، اعتدلت في جلستي مقتربة من الجثة وقد صببتُ عيني على ضلعيه وقلت دون أن أرفع ناظري لجهاد:

- سنخرج من هنا مهما كانت الظروف والأسباب، سنخرج معاً مهما حدث..

حركت يدي نحو الجثة بسرعة، وعلى الرغم من أنها كانت ترتجف بشده إلا أنها في ثوان كانت تمسك بضلعه وتحكم الغلق عليه، أغمضت عيني وحاولت نزعه، شددته عدة مرات حركته يميناً وشمالاً لكن لم يجدِ هذا نفعاً، أقبضت بيدي الأُخرى عليه واستمررت في المحاولة والتحريك حتى شعرت بحركة.

عُدت بظهري للخلف وأنا أقبض على ضلعه بين يداي وأشده بقوة حتى شعرت به يتخلخل من مكانه استمررت في التحريك في كل الاتجاهات الممكنة، شددته بقوة وتركت المجال لصراخي بأن يملأ المكان حتى سقطتُ أرضاً وقد بللت الدموع وجنتاي ويداي ترتجفان بعد أن استقر الضلع بينهما.

****

انتفضت جهاد من مكانها وركضت نحوي بسرعة، مَدت يدها من خلف ظهري ورفعتني وبدأت تنفض التراب عن ظهري وهي تقول:

- فعلتها، كان صعباً لكن فعلتها، لا تبكي امسحي تلك الدموع عن عينيكِ كل شيء سيكون بخير..

لم أجب كعادتي واكتفيتُ بالنظر لها وقد بدا الذبول يكتسي وجهي،

أسيل داود

مددتُ يدي لها بالضلع فأمسكَتهُ، قمت مرةً أخرى ولم تكن دموعي قد جفت بعد، اقتربت من الجثة وسمعت جهاد تقول بعد أن تقدمت مني وهي تضع كفها على كتفي:

- لو أردتِ يمكنني فعلها هذه المرة واتركي اتفاقنا جانباً..

أومأت لها برأسي نافيةً فرجعت بضع خطوات للخلف، جلست بجانب الجثة وأنا أردد في نفسي:

- لم يبقَ شيء، لم يبقَ إلا القليل، يمكنني فعلها كما

حدث قبل قليل..

مددت يدي مرة أخرى لنزع ضلعه الثاني لكن فور لمسي له تصلبت يدي ولم أعد أقوى على الحركة، سحبت يدي وبسطتها أمامي أنظر لها جيداً وقد بدا ارتجافها واضحاً ثم عادت الدموع تغرق عيني وبدأت أردد بأسى وقد بدا التقطع في كلماتي أيضاً:

- لا... لا يمكنني فعلها..

****

توقفت مكاني، وتركت ما كنت مقدمةً عليه، عيني لازالت تحدق بيدي واستمررت في ترديد:

- هذا المكان يجردنا من خصالنا الجيدة لا أكثر، أنا لا أريد فعل هذا..... لا أريد العبث بالقبور بعد الآن..

تركت جهاد ما بيدها واقتربت مني ثم ضمتني لصدرها في صمت، لم أمانع هذا وتركت دموعي تسيل على كتفها.

****

بدأت خيوط الضوء تملأ السماء منبئةً بقدوم الصباح، بدا كل شيء أكثر وضوحاً، أصبحت ملامح المكان ظاهرةً أكثر، الأشجار الموحشة لم تعد كذلك، والقبور ما هي إلا حُفر على سطح الأرض فمع أشعة الشمس لا تبدو بتلك البشاعة التي تخيلتُها، وهنالك طريقٌ على يسارنا يبعد عنا ببضعة أمتار وشيء تضرب سطحه أشعة الشمس جعلت منه لامعاً، كان يقبع على ناصية الطريق. أشرتُ لجهاد أن أنظري للطريق هناك ففهمت ما أعني وبدأنا بالتحرك نحوه بسرعة، وعندما اقتربنا منه كثيراً صرخت جهاد بسعادة لم أشهدها في صوتها من قبل:

- إنها سيارة..

كان ذلك الشيء اللامع في الشمس سيارة، توقفنا للحظات نتبادل النظرات ثم ركضنا بسرعة نحوها كأنها طوق النجاة الوحيد في محيط حتى قوارب النجاة قد غرقت فيه ، وصلنا أخيراً، نظرنا لبعضنا لهنيهة حتى قُلت:

- هل نجونا حقاً..

- لا أعلم لكننا سنعرف بعد قليل..

توجهت جهاد نحو الباب الأمامي وكادت تفتحه لكن البابين على يمين السيارة فُتحا تلقائياً..... نظرات أخرى تبعتها خطوات..... استقللنا السيارة..... غُلقت أبوابها تلقائياً.

(الوداع)

(١٢)

هذه المرة كانت الأمور طبيعية للغاية حيث أنه بعد استقلالنا للسيارة بدأت بالتحرك بسرعة على الرغم من خلو المكان خلف المقود من سائق، تحركت وهي تخترق بعض الرمال لتنتج من خلفها غيمة ترابية صغيرة ثم تباطأت سرعتها قليلاً،

- وماذا الآن؟؟ إلى أين تذهب بنا؟؟

سألتُ جها د لكنها صمتت لثوانٍ، كانت شاردة في ثنيات الطريق ربما كانت تفكر في شيء، ثم أجابت:

- ربما تُقلنا لمكان اللعبة القادمة ، أو ربما لمكان نبيت فيه، لا أعلم حقاً اصبري قليلاً وسينجلي لنا كل شيء..

مازالت السيارة تتحرك بنفس سرعتها التي ربما تقلنا لمكان اللعبة الرابعة كما قالت جهاد التي تجلس بجوار كرسي السائق الذي لا يحتوي على سائق قُلت:

- يبدو أن اللعبة لن تحرمنا من متعة التعجب في كل لحظة، أين السائق الذي يقود السيارة..

ضحكت جهاد وقالت:

- لا يهم المهم أنها تسير..

كُنت أجلس في منتصف الكرسي الخلفي متقدمة للأمام قليلاً سمحت لنفسي برؤية الطريق أمامنا من زجاج السيارة الأمامي ولأتمكن من إهدار بعض الوقت بالحديث مع جهاد. بعد أن قطعنا مسافة تُقدر بربع ساعة وسط طريق رملي كالصحراء لم يظهر على كلتا طرفيه غير أكوام من الرمال بد ت علي علامات حزنٍ بعد تذكري لما كنت أفعله قبل قليل، قبل طلوع صباح يومٍ جديد، اقتربت أكثر لجهاد وحدثتها بصوتٍ خافت:

- لم لم ننتظر للصباح بدلاً من..

استثقلتُ كلماتي كأن حلقي لا يريد خروجها يبتلعها كلما أردت طردها من داخلي، ثم صرخت كأني أحاول الصراخ في وجهي:

- بدلاً من العبث بالجثث، كان يجب علي التوقف..

- لم تكوني وحدك أماتا، أعلم أن ما كنا نفعله كان مُخيفاً، لكنك لم تكوني وحدك في هذا ما فعلته لا يزيد عما كُنت أفعله أنا أيضاً..

- لو أردت التوقف لتوقفت على الفور، كان علي التفكير قليلاً، كان يجب علي ألا أنحاز لـ طرفي، أن لا أفكر في مصلحتي من هذا فقط دون النظر لمن حولي ودون أن أنظر من أكون، كنت أفكر في النجاة فقط بأي وسيلة كانت حتى لو كانت تتنافى مع شخصي..

- توقفي عن لوم نفسك هذا لن يجدي نفعاً، ما حدث لا يمكن تخطيه ولا يمكننا إرجاع الزمن لتفادي فعلتنا، ثم أنك لست السبب في مأساة الجميع، كُلٌ مسئولٌ عن اختياراته، لن يُحاسب أحد على اختيارات وقرارات شخصٍ آخر..

إنها محقة في كل ما تقول، نظرت على يميني أشاهد الطريق وأنا أقول:

- لكن ما فعلناه كان خاطئ، كان خطأً كبيراً، كان منافياً لطبيعتنا..

- أعلم، لكن الجميع يخطأ، فلا مانع م ن لومك لنفسك لكن لا تُثقلي عليها..

صمتت للحظات ثم أكملت بحماس:

- ألم أرَ كيف توقفتِ ورفضتِ أن تكملي، هذا يعني أنك قد أدركتِ خطأك باكراً، أما أنا فلا فلولا توقفك ولولا ما فعلته لكنت أكملت في طريقي، أنت من أفقتني من جهلي..

التفت جهاد برأسها للخلف ناظرة لي وهي تقول تلك الكلمات:

- كم كانت الرحلة برفقتك شيء جميل حقاً لو كان لي الخيار مرة أخرى أن أختار شخصاً أكمل معه حياتي وأشاركه جميع تفاصيلها كما كنا لاخترتُك أماتا دوماً دون تردد، أنت أفضل صديقة لي سأظل أتذكرك، وحاولي أن لا تنسيني ولا تنسي أسيل أيضاً..

ابتسمت لها كم كان كلامها يدفع البهجة للقلب لم أتوقع خروج كلمات تملؤ ها العاطفة من جهاد كم كان كلاماً ينبع من شعور بالحنان والدفء، قُلت لها باسمةً:

- وأنا أيضاً كنت لأختاركما دائماً، لكن لا تقلقي لن ننسى أسيل ما زال أمامنا ما نعيشه معاً لا تحدثيني هكذا، لا تخاطبيني بصيغة الوداع الأخير..

ردت بابتسامه:

- ربما يكون كذلك ، لذا ابحثي عن أرضك لا تعيشي في مكانٍ لا يليق بك أبداً ، لا تكوني كتلك الزهرة التي حكيتِ لي عنها، جدي أرضكِ..

قُلت:

- لا لن يكون هذا هو.........

قاطعتني:

- فقط تذكري أنك كنت سبب في كل ما هو جيد، وعديني أنك لن تنسينا أبداً، وستبقي بخير..

- أعدك أنـ.........

لم أستطعِ أن أكمل جملتي تلك عندما رأيت جهاد في مشهدً خُيل لي أنه بطيءٍ للغاية وسريعٌ في ذات الوقت لعدم تمكني من التصرف حينها، عندما أرجعت جهاد نظرها أمامها وهي تقول:

- سأشتاقُ لكِ كثيراً..

- لا، أنت لن تفعلي هذا جهاد، لن أتحمل فراقكِ أيضاً لم يبقَ لي سواك... سنحاول أرجوك... سنجد حلاً... لا تستسلمي مازال هناك أمل... أنا أمتدُ قوتي منك..

توسلت لها لكن في لحظة كانت ممسكة بمقود السيارة بكلتا يديها جاعلة ً من السيارة تتحرك باتجاه حائط..... حائط وسط الصحراء! لم أكن أعي وجوده حتى تلك اللحظة من أين ظهر هذا أيضاً، شعرت بارتطام السيارة بالحائط وبدئت رؤيتي حينها في الانعدام شيئاً فشيء

لكن كان آخر ما رأيته قبل أن تُغلق عيني أن مكان السائق كما رأينا في البداية لم يكن المكان فارغاً لكن الوجه كان مألوفاً لي، لقد كان من يجلس على كرسي الـ سائق أماتا هي من تجلس هناك تُسندُ رأسها على المقود والدماء تسيل من رأسها وهي تنظر لي قبل أن تغمض عينها، كيف؟؟ هل كنت أنا من ترقد هناك......... وبعدها تلاشت الرؤية تماماً.

أسماء زاد

(الحقيقة)

(١٣)

استيقظت على رجلان يقفان أمامي يبدو من زيهما الأبيض أنهما طبيبان وممرضة تقف على يميني تحقن مادة لا علم لي بها في كيس موصولٌ بذراعي وفور انتهائها مما تفعل أخذت طريقها للخروج. سمعت الطبيبان يتحدثا ويزعمان تعرضي لحادث سيارة كنت أنا قائدتها نتج عنه تعرضي لإصابات متفرقة في أنحاء جسدي أدى لإجرائهما عمليات لي وكان من نتاج هذا الحادث أيضاً فقدت صديقتي جهاد التي ركبت معي السيارة وهذا مع كامل الأسف كما يقولان، استنكرت ما أسمعه وخاطبتهما قائلة:

- نحن كنا نلعب لعبة و.....

حتى سمعت أحد الطبيبان يقاطعني قائلاً:

- أنسه أسيف هذه المرة الرابعة التي نحاول إقناعك فيها بما حدث ولكنك لا يخرج من فمك سوى ما تشرحيه عن تلك اللعبة الغريبة، أنت هنا منذ أكثر من ثلاث أسابيع و....

لم أسمع شيء بعد أنسه أسيف لماذا يدعوني بهذا الاسم هل من الممكن أن الأمر قد اختلط عليه وقد دخل غرفة غير التي كان سيدخلها، لا إنه يمسك بملف مكتوب عليه هذا الاسم، حسنا ربما قد

اختلطت الأوراق ، ولكنه ذكر اسم صديقتي أيضاً ربما يكون هذا أيضاً تشابه أسماء، قاطعته قائله:

- تقصد أماتا سيدي..

قال بتأفف:

- مجدداً..

ليوقفه الطبيب الآخر:

- فلندعها ترتاح قليلاً يبدو أنها مازالت تشعر بالإجهاد..

وأشار له بالخروج كأنه يود إ خباره شيئاً لا يريدني سماعه، استمع له وتركاني. قُمت من سريري أجر ذلك المصل معي متجهة للباب لأسمعهما يقولان كلاماً غير مفهوم عن حالتي الصحية والعقلية وضرورة نقلي لمصحة أمراض عقلية ونفسية وأنه سيتم إرسال الموظفين المسئولين عن نقلي في أسرع وقتٍ ممكن.

****

رجعت لسريري أعمل جاهدةً على البحث في خلايا عقلي عن ماهية ما يحدث، لم أشعر بالراحة فبدأت أجوب ذهاباً وإياباً في الغرفة استوقفتني تلك المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط لأنظر لوجهي

- لا، لا لست أنا! أتذكر أنني لا أشبه هذا الوجه..

قُلت ساخرة من نفسي هل أنا أعيش حياة شخص آخر، أم أن نظرية تناسخ الأرواح كانت حقيقة ونحن لا نعيش حياة واحدة وقد نجحت علي تلك النظرية.

فككتُ المصل من يدي واتجهت للباب بترقب وعند تأكدي من خلو المكان خرجت بهدوء لعدم لفت النظر إلي. بعد عبوري من باب المستشفى أو هروبي منه بمعنى أدق ركضت نحوه..... نحو اللاشيء، شعرت أني بحاجة لتلك الركضة الغريبة التي تؤدي إلى اللاشيء. ذهبتُ هناك، لشارعي الذي اعتدت المشي فيه كان مظلماً كعادته على الرغم من تلك الأعمدة التي لا تفيد بشيء، قبل خمس سنوات تعطلت تلك الأعمدة جميعاً ربما لهذا السبب لم أرها تنير شيئاً منذ ذلك الوقت فيما عدا ذلك العمود الذي يجثوا على قارعة الطريق فقد قرر التمرد عن البقية ولا زال يعمل إلى الآن، لكن الشارع لا يزال مظلماً على الرغم منه، ذلك العمود المنفرد لن يكفي لشيء أبداً. حِمت في أرجاء المكان، في الحي، وحول المنزل، في كل مكان للتأكد من أني هنا حقاً، أنا في وطني.

****

صعدت تلك الأدوار الخمس، سرت بضع خطوات بعدها حتى وجدت قدمي قد توقفت أمام ذلك الباب بني اللون، أمام شقتي، تقدمت منها، دخلتها ببطء وتفحصت الغرف بتمعن كأني أعاين بيت للشراء لا منزلي. غرفتي التي تقطن في هدوء هناك، دخلتها لأرى سريري الحديدي ذو اللون الأسود، كم اشتقت إليه حقاً، ارتميت عليه في لقطة تصويرية كتلك المشاهد التي نراها للبطل وهو يرتمي على سرير الفندق ذو الأغطية البيضاء الفاخرة.

تذكرت تلك الغرفة في آخر الممر لأنتفض مسرعة إليها كانت كما أذكرها تماماً اتجهت بخطى ثابتة، أنا الآن أمامه أضع يدي على

مقبضه الذي يغطيه الصدأ بالكامل حاولت فتحه لكني لم أنجح ظننت أن قوتي لا تكفي لفتحه، حاولت مرات عديدة وأنا أضغط على قبضته وأشده في جميع الاتجاهات آملةً بفتحه وركلته بقدمي عدة مرات ولم أتمكن من النجاح حتى تملكني اليأس فتركته ورجعت لغرفتي بخيبة أملي، جلست على سريري وكان يقابلني على الحائط تلك الجملة التي كتبتها بخط يدي حينما كان للتفاؤل مكان يشغله داخلي، وقفت من جلستي تلك وتقدمت منها أخذتها وطرحتها أرضاً فتناثر زجاج الإطار في كل مكان ثم أمسكت بإحدى الأوراق على مكتبي والتقطتُ قلماً وبدأت أكتب.....

..... فقدت رغبتي في كل شيء، يبدو أن هذه الحياة لم تعد ترغب بي، وهذا عهدٌ مني لنفسي بأنني لن أثق فيها بعد الآن هذا في حال بقيت على قيد الحياة بضع دقائق أخرى، لم لا يبدو كل شيء كما هو..... حسناً كل شيء كما هو لكن هناك شيء اختفى كأنه لم يكن ولا أعلم كيف حدث هذا لكني على يقين بأنه كان موجود كيقيني بأني لا أمتلك سوى تسع أصابع في يدي كم يبدو هذا مضحكاً بعض الشيء..... لم أعد أقوى حتى على التفكير أكثر ولكن.....

توقفت عن الكتابة ورفعت الورقة لتستقر عند مستوى نظري، وقلت لنفسي مع ابتسامة تدل على استهزائي بتلك الكلمات:

- أظن أن هذا أفضل بكثير، هذا يدعو للتفاؤل أكثر..

تبدلت تلك الابتسامة وأصبح وجهي يكسوه علامات التعجب التي ارتسم عليه فوراً:

- لحظة..... لم أكن أحب الكتابة من قبل، لم تبدو لي تلك الكلمات

كأنها خواطر، كأن شخصاً اعتاد على كتابة مذكراته كل ليلة قبل نومه، لم أكن كذلك، أنا لم أكن أفعل هذا من قبل.

بقيت أتأملها لبضع ثواني ثم مزقتها على الفور حتى تفتت الورقة وأصبحت كل قطعة منها لا تعرف الأخرى، لن أُصبح شخصاً آخر غير الذي اعتدتُ عليه، لن أكون سوى أنا.

أنهيت ما أفعل وأعطيت ظهري للمكتب وفتات تلك الورقة الملقاة عليه وأنا أقول لنفسي مطمئنة لها:

- لا تقلقي لم ولن يتغير شيء، ولن أسمح لنفسي بأن أكون شخص آخر، كل شيء سيبقى كما هو..

ثم عاودت خطواتي للسرير استلقيت عليه وأنا أحاول تجميع أفكاري المشتتة في عدة أطراف حتى غلبني النوم.

استيقظت بعد مدة تبدو أنها طويلة لأنني رجعت لمنزلي في ظلام الليل أما الآن فيبدو أن الشمس بدأت بالغروب، يظهر لي هذا بوضوح من نافذة الغرفة. لكنني لم أستيقظ من تلقاء نفسي فقد كان هذا بسبب تلك الطرقات المتتالية التي كادت أن تخترق باب شقتي، كنت أعلم أنهم قادمون لكن لم أعلم أنهم بهذه السرعة، كنت حقاً بحاجة لرؤية منزلي قبل ذهابي حتى لو كانت الأخيرة، ذهبت بعيني الشبه مفتوحة تلك وخطواتي المتلكئة كأن قدمي تمنعني من الذهاب لا تريد مني أن أقابل مصيري الحتمي. أقف أمام الباب الآن، فتحتُ الباب لأجدهم أمامي كانوا..... حسناً لا أعلم كيف أصفهم ولا من هم حتى لكن يبدو أنهم الأشخاص المكلفين بأخذي هناك بعد تأكدهم من اختفائي من المستشفى وذلك لهربي منها بالأمس، وأيضاً

بعد تلك التحاليل والأسئلة الغريبة التي أخبرني الطبيب أنها طُرحت علي حيث أن الأطباء كانوا يعتقدون أو ربما متأكدون من أن كلامي عن اللعبة ما هي إلا فوضى عارمة أو بعض من السخافات التي يصورها لي عقلي.

نعم فأولئك الأشخاص كانوا هنا وأمام شقتي الآن لأنهم مُكلفين بأخذي لمصحة الأمراض العقلية والنفسية.

أسراء زاد

(أسيف)

(١٤)

باتت كل الليالي هنا تشبه سابقتها وها أنا الآن في اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر بداية فصل الشتاء وبداية سنتي الثالثة في هذا المكان، استيقظتُ في غرفة بيضاء نصفها السفلي مطلي بلونٍ أزرق بهتَ لونه بمرور سنوات طوال، وجدت بأني كنت أغفو على كرسي مرتدية شالِ أزرق اللون كان يخبئه لي القدر من ممتلكات جهاد لم أستطع التخلي عنه فكان هو ما يعتليني دائماً مع بداية كل شتاء ومع نهايته أحتفظ به في الرف العلوي من خزانة غرفتي وأربط حول معصمي الأيسر ربطة شعر مُزركشة وملونة بألوانٍ كثيرة قد كانت الأحب لأسيل، وتقابلني شرفة الغرفة كعادتي وذلك لمحبتي في رؤية الأشجار وهي تتمايل على رقعة السماء الصافية التي يعكر صفوها خيوط من الغيوم لا تستبشر بنزول المطر لكنها تعطيها جمالاً آخر مكونه أجمل لوحة كونية، ويقابلني في الجلوس دكتور ماهر، دكتور في نهاية العقد الثالث من عمره، حليق الرأس، طويلٌ نوعاً ما، يرتدي بدله كأنه مقبلاً على عرس يعتليها بالطو أبيض وكان هذا الشيء الوحيد المعبر عن كونه دكتور، كان كعادته دوماً وبنفس إطلالة اليوم الذي يسبقه، هم بالوقوف أمامي ليحجب عني لوحتي الجميلة وعندما وقعت عيني على عينه قال:

- كيف حالك اليوم أسيف..

قُلت نفس كلماتي الباردة التي أتلفظ بها دوماً:

- لستُ بخير، ولن أكونَ بخير ما دمت هنا..

لم يعبر عما قلت، وقال بابتسامة لا تتناسب مع كلامي:

- لم أشأ إيقاظُك لكن ميعاد الدواء قد حان..

سئمت روحي من هذا الدواء كم من مرة أخبرته أني لا أحتاج لمجسمات صلبة ترمى في معدتي لتبدأ المعدة بدورها بتفتيت تلك المجسمات عديمة الفائدة. قلت له:

- أنتم تعطون تلك المجسمات للشخص الخاطئ فنحن لسنا المرضى بل أنتم..

قال:

- نعلم ذلك نحن نعطيه لكم لكي لا تتدهور حالتكم مثلنا نحن نحميكم..

كنت أعلم أنها كلمات معسولة يقولها ليريحني وكلانا يعلم ذلك. أتذكر عند وصولي للمصحة ما كنت أُردد غير اسمين جهاد وأسيل يتبعها "اعتذروا من رمادنا بعد إحراق أرواحنا" لم يفهمني ولم يحتويني أحد سواه كان يقول لي:

- خُذي هذا الدواء فقد صنع خصيصاً لترميم الأرواح يا من طُهر قلبها من الصفحات السوداء، يا ذات القلب الرقيق..

كنت أحب عندما يصفني بأوصافه الغريبة تلك فقد كان الجميع

ينادونني بذات الاسم الغريب. كم من مرة كنت أجادله لكي أسمع فقط وصفه المختلف لي الذي يتمركز معناه حول قلبي. كان ذلك يشعرني بسعادة مختلفة.

- أتعلم يا دكتور ماهر ما هو السوء الذي نطبقه على أنفسنا دون دراية منا..

- لا ،لا أعلم، أخبريني أنت..

- عدم عيشنا للمواقف في لحظتها يؤدي لتآكل أرواحنا مع مرور الأيام بسبب تراكمها..

لم ينبع منه سوى ابتسامة لا تكاد ترى كانت تدل على فهمه لما قلت وهزهُ لرأسه لأكمل ما بدأت، فأكملت:

- ولكن أتعلم ما الأسوء، أن تنفجر تلك التراكمات أمام أشخاص لا يقدرون، فبدل أن يحتوونا ويحاولون فهم ما نمُر به يتظاهرون بتألمهم من الشظايا المتطايرة من ذلك الانفجار، وإن لم نجد من ننفجر أمامه فسيكون هذا أسوء بكثير..

لم يحاول أن ينبث بأي كلمة كانت ردة فعله المعتادة مد يده فقط مع تلك المجسمات الراقدة على راحة يده جاريته وأخذت مجسماته الصلبة وابتلعتها على الفور بغير مبالاة كأني كنت أنتظر جواب أو ردة فعل مختلفة عن العادة، ثم أكملت:

- أتعلم لم حاولت الانتحار..

- لماذا؟؟

- لم أتقبل كوني ناقصة أبداً لم أكن بقوة ذلك الجندي الذي عاد فرحاً بانتصاره في الحرب رغم عودته مبتور القدم مودعاً لأصدقاء رحلته، ولست كتلك الأم التي سعت إحدى عشر عام لتفوز بذلك الطفل لتكتشف بعد ثلاثة أيام استحالة بقائه على قيد الحياة أكثر من أسبوع وذلك بمساعدة أجهزة تنفس لوجود ضمور في رئته اليمنى..

- لكنك تبدين بكامل حُلتكِ الجميلة، صحيح أن بعض الجروح تعكر صفوها إلا أنها ستزول مع مَرور الأيام..

قلت باستهزاء:

- جميلة وجروح!! كم أنت سطحي يا دكتور ماهر رغم تخصصك الذي تطبقه علينا، دعك من تشوه وجهي وذلك الإصبع المفقود وتلك الجروح التي تتحدث عنها ، أنا أتحدث عن تلك الجروح التي لا تُرى، تلك التي لا يشعر بنزيفها إلا صاحبها..

صمت لهنيهة بوهن: لم يبدِ هو أي ردة فعل لم أكن أنتظر هذا ثم أكملت:

- أتعلم عندما قرروا وضعي في هذا المكان كنت أعلم أني مختلفة لذا قرروا وضعي في هذه المحمية التي يرعى فيها أصحاب العقول المختلفة، أعتقد أنها مؤامرة ضدنا ليحاولوا فهم طبيعة عمل عقولنا لاستغلالها لمصلحتهم لكنهم أغبى من مقدرتهم على فهم تركيبة هذا الجزء المحصور داخل تجميعة من العظام وبعض التركيبات الأخرى، واعذرني على هذا الوصف الذي لا يرتبطِ بأي صلة مع الوصف الطبي الدقيق وأعتقد أنك لم تكن تنتظر مني وصف أفضل من هذا، لست بارعةً مثلك..

ابتسم لي، ثم أكملت متسائلة:

- لكن أتعلم لم وصفتهم بالأغبياء..

قال:

- لما؟..

قلت:

- لأنهم يبحثون في المكان الخاطئ يجب عليهم دراسة أنفسهم لا نحن، يظنون أننا نحن المرضى النفسيين لكن الحقيقة أننا هنا بسبب ما فعلوه بنا المرضى النفسيون من حولنا، حاول أن تشرح لهم هذا جيداً..

أجاب:

- أعدك أنني سأفعل..

ما هي إلا دقائق حتى شعرت بهدوء يخترق جسدي كم كرهت هذا الشعور اعتدلت من جلستي على الكرسي متجهة لسريري لأحظى ببعض من الراحة، كانت راحة من نوع آخر هذه المرة ولكن ربما لو كنت أدرك أنها الأخيرة.......... حقاً ماذا كنت سأفعل "لا شيء" كما عهدت نفسي عديمة فائدة لم أسبب سوى الحزن لمن حولي. بدأت جفوني بالتثاقل على عيني كأن جبل يرسو على عيني بدأت المساحة التي أرها تصغر شيئاً فشيء وكان آخر ما أره تلك الإضاءة المعلقة في سقيفة غرفتي وآخر ما سمعته هو صوت الدكتور بخيبة أمل وهو يقول:

- أنا آسف أسيف، آسفٌ حقاً، كم كُنت أحبك يا ذات القلب الرقيق..

ثم شعرت بقبلة تنطبع على خدي الأيمن ثم لا شيء، لم أشعر بعدها إلا بالا شيء.....

(ماهر)

(١٥)

تأكدتُ من أخذ أسيف الدواء واستلقائها على السرير قبلتُها ثم خرجتُ مُتجهاً لغرفتي، لمحت رجلان يدخلان غرفة أسيف تغاضيت عن هذا. دخلت غرفتي لتستقبلني رائحة زكية، أقفلت الباب وما زلت أستنشق رائحة القهوة التي كانت تملأ الغرفة وتتخلل في كل زواياها، كان هذا أفضل جزء في يومي غرفة غلب عليها رائحة القهوة التي كانت تنبعث من ذلك الكوب الذي يقتن على حافة الطاولة، كل شيء يبدو على هيئته كما أريد وكما وصيت عم إبراهيم عامل الكافيتيريا والمسؤول عن هذه التحفة الفنية الراقدة على سطح مكتبي بجوار الخشبة المحفور عليها اسمي، على الرغم من أنه يبيعني كوب القهوة أغلى من ما هو عليه وذلك لأنه يوصله إلى هنا، إلا أن لا شيء يضاهي هذا الشعور بالراحة الذي يجتاحني عند دخولي إلى غرفتي الأمر يستحق أن تدفع له بضع القروش الزائدة. ذهبت إلى مكتبي خشبي اللون يمتلك قُشوراً في أماكن متفرقة نتيجة طليه من سنوات باللون الأبيض آملين أن يغير هذا من لونه لكن لا لن نتمكن من منع عوامل الطبيعة في التأثير على الأشياء حولنا.

جَلست على كرسيي الخشبي مسنداً رأسي على يدي اليمنى وتناولت ملف أسيف المرضي وبدأتُ أكتب باليد الأخرى آخر تطورات الحالة

في الملف المخصص لها وبِجوار الملف فتحت دفتراً كنتُ قد خصصته لأسيف منذ أول يوم أتتنا ضيفة للمصحة أو بمعنى صريح مذكراتي عن أسيف، صحيح لم أخبركم كنت أعرفها من قبل ظننت هذا واضحاً لمجرد أنني كنت أعلم كم هذا سخيف حقاً. كُنا في حي واحد افترقنا وهي في السادسة من عمرها لانتقالنا لمنطقة أخرى أتذكر أنها كانت تحب الورد فكنت دائماً ما أحضر لها ورد حتى لو كانت وردة يتيمة لتتمتع هي باستنشاق رحيقها وأنا كانت تكفيني الابتسامة التي ترتسم على وجهها كنت أستنشق من خلالها رحيق وجمال روحها البريئة. حقاً كم كنا أبرياء لو كنا نعلم حدوث كل هذا لما تمنينا أن نكبر يوماً. أتذكر في يوم أخبرت أمي:

- لما لا أمتلك اسماً بجمال وغرابة أسيف..

كم تمنيت ذلك فأجابتني:

- إن لكل منا نصيباً من اسمه..

ما كنت أصدقها كنت أظنها إحدى العبارات المتداولة لدى الأمهات ولكنني أدركت ذلك عندما أصبحتُ دكتور أمراض عقلية يشهد لي الجميع بمهارته، ربما كان هذا نصيب أسيف فقد كان ما مرت به أقسى من أن يتحمله قلبها الرقيق، ولكن لم أستطع أن أشفيها ربما لأن الطبيب لا يستطيع التصرف بشكلٍ جيد مع أقاربه، وهي كانت أقرب لي من روحي. أعلم أنه ليس مبررٍ ولكني عجزتُ كمن قطعت أطرافه وهو مازال يصرَ على السباحة.

بدأت بقراءة المذكرة فربما تحتاج لإضافة تفاصيل... أسيف فتاة في منتصف العقد الثالث من عمرها أتت لمصحة البشير قبل ثلاث

سنوات بعد أن تم نشلها من بين أشلاء سيارة وبالأخص من أمام عجلة القيادة وأدى الحادث لتلقى صديقتها جهاد مصرعها فيه قلت مُحدثاً لنفسي بصوت مسموع:

- كم كانت محظوظة صديقتها حقاً..

أكملت القراءةَ بعدها.....

ثم تلقت أسيف علاجاً كاملاً في أماكن متفرقة في جسمها، كسرٌ في الساق اليمنى، ورض في اليد اليسرى مع بعض الجروح الناتجة من انغراز الزجاج فيها، وتشوه في الجهة اليسرى من الوجه نتيجة تكسر زجاج الباب الأيسر وتتطاير فتاته على وجهها فأدى ذلك لتشوهٍ لا يُعالج إلا بعمليةٍ تجميلية، ويدها اليسرى التي تمتلك أربع أصابع.

لم تكن أسيف قادرةً على تحمل تكلفة العملية التجميلية فحاولت دائماً أن تغطي الجرح في وجهها بشعرها لكي لا يرى أحداً عيبها هذا، لا تعلم أنها لم تفشل أبداً في أن تكون جميلة، لا تعلم أن التشوه في قلوبهم لا وجهها، قلت في نفسي:

- لم تمرِ بالقليل أسيف..

وبعد اطلاعي على سجلها الصحي تبين أنه لم يقطع خنصرها في حادث السيارة كما ظننت بل كان مكتوب في التقرير الطبي أنها إصابة عمل تم إهمالها فتضاعفت النتائج ليصاب الإصبع بالكامل بغرغرينة فكان الحل الوحيد هو قطع الإصبع قبل أن تنتشر الغرغرينة في باقي اليد ليقول صوت عقلي:

- ما الحياة التي عاشتها هذه المسكينة..

قاطعت عقلي لأكمل .....

وبعد استفاقتها في غرفة المشفى لم يكن على لسانها سوى "أسيل جهاد اعتَذروا من رمادنا بعد إحراق أرواحنا" ثم نقُلت لمصحة البشير للأمراض العقلية والنفسية. أذكر في مرة بعد قدومها إلى هنا بأيام قليلة سألتها عدة مرات عن معنى ما تقول لكثرة تكرارها له:

- كنت أسمعك ترددين أحياناً وأنت نائمة "حرقوا أرواحنا ثم لم يعتذروا حتى من رمادنا" أو شيء أشبه بهذا لكن ماذا يعني هذا الكلام ومن تقصدين..

ابتسمت بخفة وقالت:

- ما أعنيه أننا البشر من المفترض أننا نمتلك مبدأ الاعتذار بالفطرة لكن الأغلبية العُظمى لا يطبقون هذا حتى بعد معرفتهم لما فعلوه فلا يعتذرون لا من هذا ولا من ذاك، يكتفون فقط بالنظر بعد أن قاموا بإخفاء تلك الفطرة وتخبئتها في أعمق حفرة داخلهم حتى لا يتمكنوا من الوصول إليها ولا التفكير حتى بأنهم يمتلكون فطرةً كتلك..

توقفت عن الكلام ثم أخذت عدة رشفات متتالية من كأس الماء المجاور لها ثم أكملت بعدها:

- إن كبرياء وغرور البشر لا يسمح لهم بالاعتراف أنهم ظالمون لأنفسهم لا للآخرين فقط، ولك أن تتخيل كيف سيكون نتاج هذا المجتمع، بالطبع سينتج تلك الأجساد المحيطة بنا دون روح، كنت أشعر أنني لا أنتمي لهم، لذا حاولت كثيراً مغادرتهم لكنني فشلت في

هذا أيضاً، ربما لأنني مازال بداخلي شيءَ من هذا المجتمع وهو "حب البقاء"..

توقفت عن الكلام لكن إجابة سؤالي لم تكتمل بعد فقلت لها:

- لكنك لم تخبريني من تقصدين بهذا الكلام بعد..

أجابت:

- أما عن هذا فدعني أحتفظ به لنفسي..

كان كلاماً مُبهماً على الرغم من منطقيته فهي لم توضح لي ما الذي تسبب بترسيخ تلك المقولة في عقلها والتي أوصلتها للدرجة التي تجعلها ترددها كثيراً أثناء نومها، على الرغم من محاولاتي الكثيرة بعدها التي باءت جميعُها بالفشل وهي كانت تكتفي بتلك الابتسامة الخافتة والصمت.

****

لم أكن أعلم كيف أخبرك بهذا لكن كان قرار المصحة "المريض الغير قادر على التعافي خلال سنة يتم إقصاؤه ". كم هو قانون سخيف وقرارٌ مريض من إدارة المصحة، كأن هذا قد يكون رغبة المريض، ما من مريض يريد البقاء في متاهات عقله التي تجبره على عيش تفاصيل غريبة، هم لا يعلمون مدى المعاناة التي يعيشونها نحن حقاً المرضى كما قالت أسيف. حاولت أن أنقذك، زورت أوراقك لثلاث سنوات ولكن دون جدوى كان اليوم هو آخر أيام سنتك الثالثة فكنت مضطراً بإعطائك دواء ينقلك للحياة الأخرى، حياة أفضل من هذه، لم أكن أدرك أن الصدفة التي جمعتنا ستكون الأجمل والأسوأ في

نفس الوقت لتكون تلك الكلمات هي آخر ما أتمكن من كتابته في المذكرة على آخر السطور..........

وداعاً يا حب طفولتي وعشقي الوحيد، وداعاً يا أجمل صدفة.

****

كنت أعلم أنها تتوهم لا غير، من قد يعيش كل ما حكته أسيف عن اللعبة إلا إذا كان في مخيلتها هي وحدها، ربما كانت تحاول الهرب من واقعها بهذه التخيلات، كل ما سمعته مجرد أوهام، تخيلات صورها عقلها لتخفيف وطأت الصدمات عليها.

توجهت لمنزلي بعد يوم عمل طويل كانت الشمس تدنو منا مبشرةً بقدوم الليل أخيراً. صعدت الدرجات الكثيرة للأدوار الخمس وصولاً بشقتي، وجدت صندوقاً لونه أسود تحيط به شريطة سوداء لامعة معقودة على شكل فيونكة، كان الصندوق متروكاً أمام بابي، تناولته من على الأرض لم يكن ثقيلاً، ظهر على سطح الصندوق ورقة مثبتة تحت الشريطة كُتب عليها إهداءَ خاص للدكتور ماهر، قلت في مخيلتي:

- تبدو أنها لي، حسناً لأرى ماذا تحتوي..

فتحت الباب، رميت بالمفاتيح على طاولة الطعام ووضعت الصندوق الأسود على الطاولة، سحبت كرسياً وجلست أتأمل الصندوق في تعجب من قد يرسل لي هدية في هذا الوقت من السنة، ما مناسبته، تأملت الورقة مرةً أخرى لم يكتب من المرسِل وضعتها جانباً، بدأت بفك عقدة الشريطة السوداء المحيطة بالصندوق في حذر ثم رفعت

الغطاء ببطء،

- ما هذا!!

أصابتني الدهشة فور رؤيتي لما في داخل الصندوق إنها نفس المواصفات مع اختلاف بسيطٍ ملحوظ، هذا مستحيل..... أخرجتُها من الصندوق وقمت بإزاحة الصندوق للأمام قليلاً، وضعت ما بيدي بحذر على الطاولة أمامي، كانت أشبه بجهاز إلكتروني كأنه لعبة من الأساطير التي كنا نسمع عنها وهناك أزرار على جوانب الجهاز ولم يظهر عليها أي علامات للقدم أو أي خربشة،

- هذا هو الفارق الوحيد..

قلتها بصوتً تمكنت أذني من سماعه وأنا أتحسس تلك الكلمة المحفورة على سطحه ، كان محفورٌ عليها بشكلٍ واضح "ماهر"

أسامة زاد